دعوة الحق

تصحيح مفاهيم حول

التوكل والجهاد

ووجوه النصر

تأليف

الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

السنة السادسة - العدد ٦٤
رجب ١٤٠٧هـ - مارس ١٩٨٧م




بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمات

(١)

الحمد لله الذى جعل كتابه نورًا ، وأرسل رسوله محمّدًا سراجًا منيرًا ـ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين وسلّم تسليمًا كثيرًا ـ ومنحنا العقل لِنُبْصِر به الهدى من آياته فى كتابه ، وآياته فى كونه ، وسننه فى مقاديره التكوينيّة ، وبيانات رسوله ﷺ فى أقواله وأفعاله وسيرته ، وبعد :

فمن اهتدى إلى الحقّ بعد ذلك فقد ظفر ، ومن لم يهتدِ رِضىً بالجهل أو تنكُّبًا لسبيل الهدى خسر .

ولا عذر للجاهل فى جهله بسنن الله التكوينيّة ، فمن دخلَ النار جاهلاً بأنّها تحرقه ، فإنّ الله عزّ وجلّ سيحرقه فيها ضمن قوانينه وسننه السببيّة القدريّة . ومن ألقى نفسه فى البحر وهو لا يحسن السباحة جاهلاً بأنه سيغرق فى البحر ، فإنّ الله سيغرقه فيه ضمن قوانينه وسننه السببيّة القدرية .

ولا عذر لمن ظنّ أن توكُّله على الله ﷺ كاف لأن يخرق الله عزّ وجلّ له قوانينه وسننه السببيّة القدرية ، إذا لم يكن عنده من الله وحىٌ يأذن له بذلك ، أو يأمره به ، فمن عاند بهذا الظنّ قوانين الله التكوينية ، وسننه السببيّة القدرية ، أجرى الله فيه مقاديره ضمن

قوانينه وسننه . ولم يغيّر سننه وقوانينه فى كونه إكرامًا لصدق توكّله عليه . لأنه عاصٍ لأوامره له باتخاذ الأسباب . وليس عنده إذن خاص باستثناءٍ له أن يخالف فيه القواعد السببيّة العامة . فمن توكّلَ على الله صادقًا فى توكّلِه فرمى نفسه من شاهقٍ على صخرةٍ . وليس عنده إذن من الله بذلك . حطَّمَهُ الله على صخرته . وكَسَرَ رأسه ضمن قوانينه . وعاقَبه عنده على انتحاره . ومن كان قائِدَ جيش فنادى فى جيشه توكّلُوا على الله وخوضوا البحر يجعلْهُ الله لكم يَبَسًا . وينجيكم كما أنجى موسى عليه السلام وقومه . وليس عنده إذن من الله بذلك ، أغرقه الله فى البحر وأغرق جيشه . ضمنْ قوانينه وسننه السببيّة التكوينيّة . وآخَذَهُمْ عنده على عملهم ذلك ، لأنهم عصوا أوامره فى اتخاذ الأسباب التى تقضى بها قوانينه التكوينية ، وسننه السببيّة .

فالخوارق لا تأتى بمجرّد التوكُّل على الله . ومخالفةُ سنن الله لا تكون إلاّ بإذنٍ منه أو أمر .

ولا عذر للجاهل فى جهله بأحكام الله التشريعيّة . إذا كان العلم بها ممكنا عن طريق التعلّم . أو سؤال أهل العلم . فمن خالفها كان عاصيًا لله ، إذْ قصّر فى تحصيلها ، أو تهاون . وهو يعلم بصورة عامّة أنّه يجب عليه تعلُّمها .

ومن تصدّى لاستنباط أحكام دين الله . أو بيان معانى نصوص القرآن والسنة وهو غير أهل لذلك . فهو عاصٍ آثم . يجنى على نفسه وعلى من اتَّبعَه . وهو أسوأ حالاً من المتطبّب الذى يتصدّى لتطبيب الناس وهو جاهل بصناعة الطبّ . وإذا أخطأ فقتل فهو

قاتل شرعًا ، لأنه غير مأذون شرعًا بمزوالة مهنة الطبّ ، كذلك من يتصدّى للاجتهاد فى أمور الدين وهو غير أهل لذلك .

ومن تصدّى لقيادة جيشٍ فى معركة حربيّة وهو غير أهل لذلك فهو آثم ، ويتحمّل عند الله تَبِعَة كلّ أخطائه التى يرتكبها ، ومَا تجرُّ هذه الأخطاء على جيشه أو أمّته .

كذلك من تصدّى للقضاء أو الفتوى ، أو أى عمل يترتب على الأخطاء فيه أضرار شخصية أو عامّة ، أو إزهاق لأرواح الناس ، أو مخالفة لشرع الله ، فلا يجوز أن يتصدّى لها إلاّ من كان أهلاً للقيام بمهمّاتها .

اللّهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واستعملنا فى مراضيك ياربّ العالمين ، وجنبنا الهوى والزلل ، وضلال الرأى ، وسوء العمل .

(٢)

أخطاء كثيرة فى فهم أصول الدعوة إلى الله وطرائقها وشروطها وأركانها وأسبابها ، أو فى فهم شروط الجهاد فى سبيل الله وأركانه وأسبابه ومراحله ، لاسيما جهاد القتال منه ، توقع فى نتائج هى على عكس المطلوب تمامًا .

فالاندفاع العنيف الذى يحصل شطر جهة الغاية دون بصيرة وفقه فيما شرع الله وأبان رسول الله ﷺ ، قد ينتج عنه اصطدام بعقباتٍ تردّ المندفع ردّةً عنيفة ، حتى تبلغ به أحيانًا إلى ما وراء الموقع الذى اندفع منه .

والأخطاء فى فهم وجوه نصر الله لعباده المؤمنين يورث لدى الجاهلين شكًّا فى وعد الله ، وخيبة أمل . وقد يورث ـ والعياذ بالله ـ رِدّةً عن دين الله .

إنّ بعض العبّاد الذين يعبدون الله على جهل بما يجب أن تكون عليه العبادة ، يقومون بعبادات لله عزّ وجل على خلاف ما شرع الله أو أذن ، ويُخْلصون لله عزّ وجل فى هذه العبادات ، ثم لا يكون لعباداتهم التى يقومون بها أثرها المطلوب ، وربّما يردُّها الله عليهم ردًّا كلّيًّا ، وذلك :

● لأنّهم لم يحققّوا ما يلزم لها من شروط وأركان . وقد يكون الإخلال بشرط واحد من عدة شروط ، كالطهارة مثلاً ، هو سبب فساد العبادة .

● ولأنهم لم يتعلّموا كيف يعبدون الله على ما يرضيه ، مع تمكّنهم من تحصيل العلم المطلوب ، فهم آثمون بذلك ، وغير معذورين بجهلهم .

كذلك بعض المتصدّين للدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله يقعون فى أخطاءٍ شنيعة بسبب جهلهم الذى لا يُعذَرون به ، فيردّ الله عليهم أعمالهم ، ولا يعطيهم النتائج التى يرجونها ، لأنّهم غير معذروين بجهلهم ، إذِ العلم بالنسبة إليهم مما يمكنهم الوصول إليه . ولا يشفع لهم إخلاصهم لله عزّ وجل ، لأنّ الله لا يجامل أحدًا على حساب سننه وشرائعه وأحكام دينه .

إنّ العابد بنحو الصلاة أو الصوم أو الحج من العبادات التى هى بين العبد وربّه لا يُعذَر فى مخالفته فيما لا تصحّ العبادة إلاّ به .

أفيكونْ العابد بالدّعوة إلى الله والجهاد فى سبيل الله وهما من الأمور العامّة الجماعيّة أحقّ بأن يُعذر فى مخالفته فيما يجب أن تكون عليه الدّعوة . وفيما يجب أن يكون عليه الجهاد فى سبيل الله .

إنّ المتعبّد الجاهل الذى يسمع قول الرسول ﷺ : « **إنّما الأعمال بالنيّات . وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى** » فيقول : إنّ المهمّ فى العبادة صحة النية . وإخلاص العمل لله عزّ وجلّ . ثم لا يتقيّد بشروط العبادة وأركانها وواجباتها . فيصلّى مثلاً دون طهارة مخالفًا أمر الشارع . أو دون ستر العورة . أو إلى غير القبلة . أو قبل دخول الوقت . أو نحو ذلك . ثم يزعم أنّ عبادته لابدّ أن تكون مقبولة عند الله . لأنه قد أخلص العبادة له . ونوى نيّة صالحة .

هذا المتعبّد الجاهل يشبهه تمامًا فى جهله وعدم التزامه بما شرع الله المتحّمس لنصرة دين الله . والمندفع للجهاد فى سبيله . إذ يسمع قول الله عزّ وجل : ﴿**إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ**﴾ فيقول : إنَّ الشرط الوحيد لتحقيق النّصر على أعداء الدين هو أن يكون المجاهدون صادقين فى نصرة دين الله . مهما كانت قوّتهم عُدّةً وعددًا فى مواجهة أعدائهم الذين قد يبلغون ألف ضعف أوْ أكثر بالنسبة إلى هؤلاء المجاهدين . ويستشهد بقول الله عزّ وجل : ﴿**إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ**﴾ فيندفع مع فئة من المؤمنين بفكرته اندفاعًا أهوج أرعن . زاعمًا أنّ العشرات المندفعين معه كافين لتحقيق النصر على الألوف المؤلّفة من جيش العدوّ .

أفعبادة الجهاد فى سبيل الله ذاتُ الشروط السببية الخاضعة

لقوانين الأسباب والمسببات الكونيّة ، والتى يجرى التعامل فيها مع هذه القوانين ، أهون عند الله من عبادة الصلاة مثلا ذات الشروط والأركان والأعمال الدينيّة ، التى يتعامل العابد فيها مع ربّه مباشرة ، دون وساطة قوانين الأسباب والمسببات الكونية القدرية ؟ !

إنّ لعبادة الجهاد فى سبيل الله شروطًا وأركانًا وأعمالاً وواجبات لابدّ من استيفائها كلّها لتحقيق النصر المطلوب ، مع الشرط القلبى الذى بيّنه الله عزّ وجل بقوله : ﴿**إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾ وهذا الشرط هو بمثابة صحة النيَّة فى العبادة ، فمن استوفى كلّ شروط العبادة وأركانها ولم تصحّ نيّته لم تصحّ عبادته ، لكنّه وحده شرط لازم غير كاف لتحقيق النتيجة المعلقة عليه ، وموضع تحقيق هذا الشرط إنّما يكون بعد استيفاء سائر الشروط اللازمة للجهاد فى سبيل الله ، ومع تحقيق جميع الأركان الواجبة فيه ، والابتعاد عن كلّ المفسدات التى تفسده .

ففى معركة أحد بقيادة رسول الله ﷺ قد كان هذا الشرط متحقّقًا لدى المؤمنين المقاتلين مع رسول الله ﷺ ، ومع ذلك حلّت الهزيمة فى صفوف المسلمين ، ولم تكن هزيمتهم بسبب عدم شرط ابتغاء نصرة الله عزّ وجلّ ، وإنّما كانت بسبب أنّ فئة الرّماة قد عصوا قائدهم الرسول ﷺ .

فظهر أنّ الإخلال بواجب طاعة القائد كاف لحلول الهزيمة ، ولو كان المقاتلون إنّما يقاتلون لنصرة الله وإعلاء كلمته .

إنّ فقه الجهاد فى سبيل الله يهدى العالم الفقيه إلى أنّ الجهاد فى سبيل الله له شروط لابدّ من تحقيقها قبل مباشرته والقيام به ، وله

أركان وواجبات لابدّ من تحقيقها عند القيام به ، وله مفسدات لابدّ من إجتنابها طوال القيام به ، والركن القلبىّ هو بمثابة النيّة فى نحو عبادة الصلاة أو الصوم ، هو أن يكون الجهاد ابتغاء نصرة الله وإعلاء كلمته ، لا ابتغاء دنيا أو مجد يصيبه المجاهد ، أو غير ذلك ممّا يجعل العمل غير خالص لله عزّ وجل ، وهذا الركن هو الذى دلّ عليه قول الله عزّ وجلّ : ﴿**إنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ**﴾

(٣)

ويتوهّم عوامّ المسلمين ، وعوامّ جنود الدعوة والجهاد فى سبيل الله ، أنّ النصر الذى وعَدَ الله به المؤمنين يقتصر على النصر المادّى العسكرى ، مع أنّ هذا النصر فى مفاهيم كتاب الله هو أحد وجوه النصر الذى يقضى به للمؤمنين ، فيمنحهم إيّاه ، ويُقِرّ به عيونهم ، ويشفى به صدورهم ، إذا قضت حكمته العظيمة بذلك .

لكن وجوه النصر لا تقتصر على هذا النوع ، فقد يكون النصر بغلبة فكرة الحقّ التى يحملها أولياء الله ويدعون إليها على فكرة الباطل التى يحملها أعداء الله وينصرونها ، وهذه الغلبة تكون بشعور الجماهير من أتباع أئمة الضلال بأنها حقّ ، وبأنّ ما عليه أئمتهم باطل ، ولو انتصر جنود أعداء الله على جنود أولياء الله انتصارًا ماديًّا جسديًّا ، ولو ذَهبَ فيه عدد كبير من دعاة الحقّ وجنوده شهداء فى سبيل الله .

(٤)

ولتصحيح مفاهيم كثير من العاملين والعاملات فى ميادين الدعوة إلى الله والجهاد فى سبيله ، حول التوكّل على الله واتخاذ الأسباب ، وحركيّة الجهاد ، ووجوه النصر ، وعدم الاعتماد على الخوارق والمعجزات ، كتبتُ فصول هذا الكتاب ، فهمًا من كتاب الله وسنة رسوله المصطفى ﷺ وسيرته .

وأسأل الله عزّ وجل من فضله ومنّه وكرمه ، أن يجعلها تبصرة وذكرى ، وأن ينفع بها ، ويتخذها لى عنده ذخرًا ، وأن يوسّع معها من أصحاب الرأى المخالف فكرًا وصدرًا .

إنْ أريد إلاّ الإصلاح ما استطعتُ ، وما توفيقى إلاّ بالله ، عليه توكّلت ، وإليه أُنيب .

عبد الرحمن حسن حبنكه الميدانى
أستاذ بجامعة أم القرى
مكة المكرمة

الفصل الأول

الفهم الإسلامى الصحيح لقضيّة اتخاذ الأسباب مع التوكُّل على الله

وفيه مقولتان :

المقولة الأولى : مفاهيم عامّة وأمثلة .

المقولة الثانية : أدلّة قرآنية وشرحها .

المقولة الأولى

مفاهيم عامة وأمثلة

(١)

التوكل وظيفة إيمانية واتخاذ الأسباب وظيفة عملية

أ) ـ إنّ التوكّل على الله كما قرّره الإسلام ، وطبّقه الرسول ﷺ ، وفهمه المسلمون الأوّلون وطبقوه ، وظيفة من وظائف الطمأنينة الإيمانية القلبية وعنصر من عناصر الجانب الاعتقادى القلبى ، فى الفرد المسلم والجماعة الإسلامية ، وليس وظيفة من وظائف الطاقات المادّية ، والقدرات الجسدية ، والأعمال التخطيطيّة والتنفيذيّة فى المسلم .

ب) ـ أمّا اتّخاذ الأسباب فهو وظيفة الحركة العملية الإرادية فى الحياة ، ضمن ما سخّر الله للإنسان فى ذاته أو فى الكون من حوله ، وأعطاه القدرة على تحريكه ، أو أعطاه مفاتيح إطلاق طاقاته .

١ ـ فما يرجو الإنسان من شىء ، وهذا الشىء قد جعل الله فى نظام كونه وسائل وأسبابًا للوصول إليه ، فعليه أنْ يتخذ له الأسباب

الموصلة إليه ، ضمن شروطها ومقاديرها المعهودة فى نظام الكون ، مركّبة كانَتْ أو بسيطة . وعليه أن يكون على بصيرة بأن الطبخة السببية لا تتم على وجهها الصحيح ما لم يتقيَّدْ طابخها بشروطها ومقاديرها . وعليه أن يكون دقيق الملاحظة فى التزام مقادير العناصر ، ومقادير طريقة جمعها وتركيبها والتأليف بينها ، والمقادير الزمنية اللازمة لكلّ حركة . فقد جعل الله لكلّ شيءٍ قدرًا .

٢ ـ وما يؤمر المسلم بشيء من أمور دينه . وهذا الشيء لا يتحقق إلاّ بأن يتخذ له شروطًا وأسبابًا ، تقضى بها أنظمة الكون المعتادة المعهودة فيه ، أو تقضى بها نصوصُ التكاليف الدينية . فعليه أن يتخذ لتحقيق ما أمر به تلك الشروط والأسباب ، كما هى فى نظام الكون وقوانينه الثابتة ، إن كانت شروطًا وأسبابًا كونية ، وكما جاء بيانها فى تكاليف الدين ، إنْ كانت شروطًا وأسبابًا تكليفيّة شرعية . والقاعدة الأصولية هنا تقرّر أن : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

إنّ الأمر الربّانى للمسلمين بتبليغ دين الله للناس أجمعين ، لا يمكن تنفيذه بحسب أنظمة الكون المعتادة والمعهودة فيه إلاّ باتخاذ شروط ، وأسباب كثيرة ، منها إعدادُ الأكفياء لهذا التبليغ ، ومنها استخدامُ الوسائل التعليميّة والإعلامية المختلفة ، ومنها استخدام الوسائل النفسيّة والتربوية المتعدّدة .

إذن فعلى المسلمين أن يتخذوا كلّ ذلك لتنفيذ ما أمرهم الله به من تبليغ دينه للناس أجمعين .

٣ ـ وما يُنْهى المسلم عنى شيءٍ نهيًا دينيًّا ، وهذا المنهى عنه

لا يمكن اجتنابه إلاّ باتخاذ شروط تقضي بها أنظمة الكون المعتادة المعهودة فيه ، أو تقضي بها نصوص التكاليف الدينيّة . فعليه أن يتخذ لاجتناب ما نهى الدين عنه تلك الشروط والأسباب ، كما هي في نظام الكون وقوانينه الثابتة ، إنْ كانت شروطًا وأسبابًا كونيّة ، وكما جاء بيانها في تكاليف الدّين ، إنْ كانت شروطًا وأسبابًا تكليفية شرعية .

وهذه النقطة مشمولة أيضًا بقاعدة : ما لا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب .

لقد نهى الإسلام المسلمين عن تناول ما يضرّ بصحتهم أو يقتلهم من مأكولٍ أو مشروب أو غير ذلك . لكنّ هذا المنهيّ لا يُستطاع تنفيذه في كلّ شيءٍ إلاّ بمعرفة الأشياء التي تضرّ . فإذا كانت هذه المعرفة لا تتمّ إلاّ باتخاذ الوسائل العلميّة المختلفة ، التي منها مختبرات التحليل ، وكشف ما في المركبات من عناصر ، وإجراء التجارب العلميّة لمعرفة تأثير كلّ عنصر منفردًا كان أو مركّبًا مع غيره . فإنّ اتّخاذ هذه الوسائل أمر واجب .

قال الله تعالى في سورة (آل عمران ٣) :

﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بيَنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ ١١٨﴾

أي : لاَ تُقَرِّبوا إلى مَواطِنِ أسراركم من ينافقونكم وهم ليسوا منكم ، ولا تتخذوا مستشارين منهم ، ولا خبراءَ يعرفون كلَّ بواطِنِكم ، لأنهم سيُفسدون عليكم ، ويُحبطون مخططاتكم

وأعمالكم ، عن طريق مداخلتهم ومخالَطتهم لكم ، ويستغلُّون مواقعهم وهم بطَانتكُمْ ، لتهديم أبنيتِكُمْ ، وتنفيذ مخططات أعدائكم المجاهدين بعداوتهم لكم .

هذا نهى من الله للذين آمنوا أن لا يتخذوا المنافقين بطانةً لهم ، لكنّ تنفيذ المنهى عنه فيه لا يتمّ إلاّ باتّخاذ الأسباب التى تكشف المنافقين وتميّزهم بالدلائل والأمارات عن المؤمنين الصادقين ، ثم إنّ الأسباب والوسائل الكاشفة تقضى بوضعهم موضع الامتحان والمراقَبَة ورصد ردود أفعالهم التلقائية وهم غافلون ، فلا يُنْتَقى من جماهير المنتسبين إلى الإسلام ليكون بطانةَ لقيادةٍ أو إدارة إسلامية إلاّ من يوثق تمامًا بصدق إيمانه ، مع المؤهلات الأخرى الواجبة للاضْطِلاَعِ بهذه المهمَّة .

وكم سقطت قيادات إسلامية كثيرة فى حبائل المنافقين ، الذين اتخذوا منهم بطانة ، دون أن يهتموا بالبحث عن صدق إيمانهم ، وخلوَهم من دلائل النفاق وأماراته .

(٢)

دافعا اتخاذ الأسباب الكونية

وحينما يتخذ المسلم المؤمن الأسباب الطبيعية الكونية ، لتحقيق النتائج والأمور التى يرجوها ، فإنما يفعل ذلك بدافعين :

الدافع الأوّل : الانسجام مع سنن الله التكوينيّة ، وهذا العمل هو طاعة لله بالسير وفق أحكام الله وقوانينه التكوينية القدرية ، التى

ليس باستطاعة الناس أن يخترقوها . ولا يخرقُها إلاّ مُكَوِّنها ، وليس من حقّ أحد أن يطالبه بخرقها ، وحكمَتُهُ تعالى هى التى قد تقضى بخرقها نادرًا ، لإثبات أنه هو الخالق الرب الذى إذا أراد شيئًا فإنما يقول له : كن فيكون ، أو لتصديق رسولٍ من رُسُله بآية ، أو لتطمين قلوب المؤمنين بأنهم على الحق وأنَّ الله معهم ، وقد تأتى إكرامًا لذى ضرورة صادق مع ربّه مستقيم فى دينه .

الدافع الثانى : الطاعة لله فى أحكامه التشريعية ، وذلك لأنّ الله عزّ وجلّ قد أمر المؤمنين به وبرسوله وبكتابه ، بأنْ يتخذوا الأسباب التى جعلها الله فى كونه وسائل لتحقيق مطالب الحياة الدنيا ، ويجتنبوا الأسباب المفسدة التى تقضى إلى غير ما يرجون . وأمرهم بأن يتخذوا الأسباب التى جعلها الله فى دينه وسائل لتحقيق ثواب الآخرة ، ولتحقيق ثواب آخر طيّب معجّل فى الحياة الدنيا ، مما قد يأتى به نفح الغيب للمؤمنين ، مما هو فوق سنن الأسباب العاديّة ، كالاستغفار ، والدعاء ، وصدق التوكل على الله ، والإكثار من ذكر الله ، والتقرب إلى الله بالنوافل ، والتضرع إلى الله عز وجل ، فهى أسباب تعبّديّة تجلب معونات غيبية .

(٣)

دخول كل سبب يكتشف فى عموم الأسباب التى يجب اتخاذها

ومن الأسباب التى يجب اتخاذها الأسباب المادّية التى يكتشفها

الناس بوسائلهم العلمية والتجريبية ، مهما تطوّرت أو جدّ فيها جديد ، واكتشف الناس منها ما لم يكونوا قد اكتشفوه من قبل .

ومن الأسباب التى يجب اتخاذها المخطّطات الفكرية فى مختلف مجالات الحياة السلمية والحربية لحركة التنفيذ . ومن ذلك المخططات الإدارية ، والمخططات التعليميّة ، والاقتصادية ، والزراعية ، والصناعية ، والصحيّة ، والعمرانية ، والسياسية ، والخطط الحربية ، وغير ذلك .

ومن الأسباب التى يجب على المؤمنين اتخاذها الدعاء لله ، والالتجاءُ إليه ، وإلحاح الطلب منه ، والتضرّع له ، وذكر الله كثيرًا ، مع الاعتصام بما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه .

ولكلّ شىء سبب أو أكثر ، ولكلّ شىء مقدار يجب التقيّد به ليعطى عطاءه الأحسن والأوفىٰ ، ولكل أجل كتاب ، فلا يصحّ استعجال الأمور قبل أوانها ، ومن استعجل الشىء قبل أوانه عوقب بحرمانه .

(٤)

تأثير التوكل على الله فى الإمداد بقوى معنوية عالية لدى اتخاذ الأسباب

لقد وضح لدينا فيما مضى الفرقُ بين واجب التوكّل على الله ، الذى هو وظيفة من وظائف الطمأنينة الإيمانية القلبية ، وعنصر من عناصر الجانب الاعتقادىّ القلبى فى الفرد المسلم والجماعة

الإسلامية ، وبين اتخاذ الأسباب على اختلافها ، الذى هو وظيفة الحركة العمليّة الإرادية فى الحياة ، لتحقيق النتائج العاجلة أو الآجلة .

ومتى صحّ إدراك هذا الفرق ، والتزم المؤمن بالواجب فى كلٍّ من التوكلّ على الله بصدق ، واتخاذ الأسباب الكونية القدرية كما قضاها الله ، والأسباب التكليفية الدينية ، على ما شرعها الله ، كان التوكّل على الله فى الجانب القلبى الإيمانى ممدًّا بقوة معنويّة عظيمة ، تضاعفُ القوى المادّية العاملة أضعافًا كثيرة ، حتى يسبق المتوكّلُ على الله عددًا كثيرًا من أمثاله السببيين الذين ليس لديهم مثل توكّله ، وقد تزيد بعض أسبابهم على أسبابه . وحتى يغلب عشرون مؤمنون صابرون مئتين من الكافرين بإذن الله ، والله مع الصابرين .

إنّ القوة المعنوية التى يأتى بها التوكّل على الله ، فتعطى بها الأسباب الكونية عطاءها المضاعف ، هى السرّ والاكسير العجيب الذى يسبق به المسلمون المؤمنون غيرهم ، ويختصر الله لهم به الزمن ، ويُبقى الله لهم به نتائج أعمالهم ، ثم يجعل لها آثارًا متنامية مباركًا فيها ، مع ما يدّخر الله لهم عنده من ثواب عظيم وأجر جزيل ، ينعمون بفيضه الذى لا ينقطع يوم الدين .

ومن الملاحظ أنّ أهمّ عوامل الخذلان التى تمنى بها القوى المادّية على كثرتها فى الجيوش المحاربة ، إنما هى تناقص القوى المعنوية القلبية ، التى أثبتت التجارب التاريخية أنّ فى مقدمتها قوّة التوكلّ على الله ، فهى أثقل القوى المعنوية على الإطلاق .

وذلك لأنّ من يعدّ العدّة ، ويستخدم الأسباب ، متوكّلاً على

حدود ما أعدّ من قوى يظلّ قلبه قلقًا حذرًا جبانًا خائفًا من أن تكون قوّة عدوّه زائدة على قوّته ولو بمقدار يسير ، وبذلك فقد تنهار قوته ، وتفقد أسلحته وأسبابه مضاءها المقدر لها ، لفقدان الروح المعنوية من قلبه ، وأمّا الذى يُعدّ العدّة الكاملة ، ويتخذ ما يستطيع من أسباب ، ويباشر العمل وهو موقن بأنّ قوة قادرة على كلّ شيء تدعمه من وراء الحجب المادّية ، وتشد أزره ، فإنّه يستطيع أن يستعمل فى نضاله وجهاده كلّ قوته ، مع حضور قلب ، وسرعة بديهة ، نظرًا إلى أنّه لم يمسّه الخوف الذى يقلق القلوب ، ويفسد الرؤية الصحيحة للعقول .

وما يقال فى أعمال القتال يقال فى نظيره فى كلّ أعمال الحياة .

(٥)

اتخاذ الأسباب طاعة لسنن الله وطاعة لشرائعه . والتوكل تعبير إيمانى وعبادة قلبية

لله فى كونه سنن ذات أحكام صارمة ، تنفّذ بقضاء الله وقدره ، وهى لا ترحم أحدًا ، لا صغيرًا لا يجد حيلة ، ولا كبيرًا عاجزًا ، ولا جاهلاً ، ولا غافلاً ، ولا مجتهدًا مخطئًا .

ولله فى شريعته أحكام تكليفية لابتلاء إرادات المكلفين ، فهم يفعلونها أو يتركونها باختيارهم الحرّ ، فمن فعلها أصاب خيرًا ، ونال من الله أجرًا عظيمًا ، ومن تركها أصاب شرًّا ، واستحقّ من الله عقابه جزاءً وفاقًا .

والمسلم المؤمن العاقل يتقيّد بسنن الله فى كونه ، فلا يعاندها ، ويطيع أحكام الله فى شريعته فلا يعصيها ، ويتوكّل مع ذلك على الله فى تحقيق ما يرجو من نتائج يحبّها فى الحياة الدنيا ، ويكون على يقين تامّ بأنّ الله سيضاعف له ثواب الآخرة أضعافًا كثيرة ، وبأنّه سيصيب حتمًا هذا الثواب العظيم ، لأن الله عزّ وجلّ لا يخلفُ الميعاد .

وعلينا أن نلاحظ أنّ التقيُّد بسُنَن الله عزّ وجل فى كونه وعدم مُعَاندتها ، إنّما هو طاعةٌ لله فى أحكامه التكوينية التى لا تعاند ، وتعليقٌ للرجاء فيما جعل الله فيه رجاءً ، واتّباعٌ للأمور من طرقها الطبيعية التى جعلها الله لها ، وتوسُّلٌ إلى مطالب الحياة بوسَائلها الطبيعيّةِ وأسبابها ، ودخولٌ إلى البيوت من أبوابها .

أمّا التقيُّد بشريعة الله وعدمُ تعدّى حدودها فهو طاعةٌ لله فى أحكامه التشريعيّة التكليفيّة ، التى جعل الله فعلها أو تركها داخلاً ضمن دائرة مسؤوليّة الاختيار الحرّ للمكلّف .

ثمّ يأتى التوكُّل على الله تعبيرًا عن صحّة الإيمان بأنّ سنن الله التكوينيّة هى من خلقه ، وخاضعة لحكمه وسلطانه ، وهو سبحانه إذا شاء خرقها لحكمة هو يقدّرها ويقضيها . ولكنّ الأصل ثباتها وعدم خرقها ويأتى التوكل على الله تعبيرًا أيضًا عن صحّة الإيمان بأنّ أحكامه التكليفية والتشريعية فريضةٌ لا يَعْفى منها إلاّ العجزُ عنها .

ثم إنّ التوكُّل على الله عبادة قلبية ونفسية لله تعالى ، إذْ هو سكينة وطمأنينة داخليّة من أثر صدق اليقين بالله ، وقوة ثِقل الإيمان ، وبقضائه وقدره ، وبأن له الخلق والأمر وهو على كلّ شىءٍ

قدير .

وفى التوكُّلِ على الله معنى الدعاء لله بأن يدفع الموانع التى لا يملك الإنسان فى العادة اتخاذ الوسائل لدفعها ، وبأن يتممّ الأسباب الخفية التى لا يملك الإنسان فى العادة استيفاءها .

ومع التقيد بأحكام سنن الله التكوينية ، وأحكام تكاليفه الدينية التشريعيّة ، ومقتضيات الإيمان من التوكُّل على الله ، يضاعف الله ثمرات الأعمال ، ويمنح النتائج الْفُضْلى لها .

فمن عاند فلم يتقيّد بأحكام سنن الله التكوينيّة ، أو عصى فلم يتقيّد بأحكام تكاليف الله الدينية التشريعية ، فليس من حقه أنْ يطالب الله عزّ وجلّ بتحقيق ما يرجو من نتائج ، على أساس أنّه كان صادق التوكّل عليه .

إنّ الله عزّ وجلّ لم يجعل التوكّل عليه وحده كافيًا لتحقيق النتائج ذات الأسباب التى بينتها أحكام سنن الله التكوينية ، فيما اختبر الناس وجرّبوا ، أو أخبرت عنه النصوص الدينية الصحيحة الصريحة ، وكذلك لم يجعل التوكّل عليه وحده كافيًا لتحقيق النتائج ذات الأسباب التى أمرت باتخاذها أحكام الله فى تكاليفه الدينيّة التشريعيّة .

إنّ التوكُّل الصادق على الله يعطى مزيدًا من التوفيق والتسديد ومن النتائج الفضلى ، فى أُطُر الأسباب التى يتقيّد فيها العاملون بأحكام سنن الله التكوينية وأحكام تكاليفه الدينيّة التشريعية .

والناس على أقسام ثلاثة فى هذا المجال :

الأول : قسم اتخذ الأسباب التى دلّت عليها أحكام سنن الله

التكوينية ، فحقق الله له من النتائج ما تعطى هذه الأسباب فى نظامها التكوينى ، ولو كان عاصيًا لله فى أحكام تكاليفه الدينيّة التشريعية ، ولو لم يكن مؤمنًا بالله الخالق ، وهذه القضية هى الأمور المشاهدة التى لا يجحدها إلاّ جاهل بالأسباب الكونية وما تعطيه للمؤمنين والكافرين دون تمييز ولا تخصيص ، وقد دلّ عليها أيضًا قول الله تعالى فى سورة (هود ١١) :

﴿مَنْ كانَ يُريدُ الحياةَ الدنيا وزينَتَها نُوفِّ إِلَيْهِم أَعمالَهم فيها وهُمْ فيها لا يُبخَسُون (١٥)﴾

وقول الله عزّ وجلّ فى سورة (آل عمران ٣) :

﴿ومنْ يُرِدْ ثوابَ الدنيا نؤتِهِ منها ، ومَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخرةِ نُؤْتِهِ منها وسَنَجْزِى الشاكِرين (١٤٥)﴾

وقول الله عزّ وجلّ فى سورة (الشورى ٤٢) :

﴿مَنْ كانَ يُريدُ حرثَ الآخرةِ نَزِدْ لَهُ فى حَرْثِه ، ومَن كانَ يُريدُ حَرْثَ الدُّنيا نُؤْتِهِ مِنْها ، ومَالَهُ فى الآخِرَةِ مِنْ نَصيبٍ (٢٠)﴾

الثانى : قسم اتخذ الأسباب التى دلّت عليها أحكام سنن الله التكوينية ، وأضاف إليها طاعة الله فى أحكام تكاليفه الدينيّة التشريعية ، حول الموضوع نفسه الذى اتخذ أسبابه التكوينية ، فحقق الله له نتائج أفضل من القسم الأول الذى اقتصر على اتخاذ الأسباب التكوينية فقط .

ولا تكون الطاعة الصادقة لأحكام التكاليف الدينية التشريعية ، إلاّ من أهل الإيمان ، ولا تتّم هذه الطاعة إلاّ بأن يقترن بها اتخاذ الأسباب التى دلّت عليها سنن الله التكوينية ، لأنّ الله عزّ

وجل فى شريعته لعباده قد أمر المؤمنين باتخاذها .

الثالث : قسم اتخذ الأسباب الكونية ، وأطاع أحكام التكاليف الدينية التشريعية ، وأضاف إلى ذلك صدق التوكل على الله ، فهذا القسم هو القسم الأسمى ، ويعطيه الله نتائج أجلّ وأعظم من القسمين السابقين .

ويجلب الأسباب الغيبية الإضافية ، صدق التوكل على الله ، والاستغفار ، وذكر الله كثيرًا ، والدعاء ، والتضرع إلى الله ، وإخلاص النية ، والصبر والصلاة ، والتقرب إلى الله بالنوافل .

(٦)

انطلاقات الإيمان الثلاث

فللإيمان الصحيح الصادق انطلاقات ثلاث ، وهى ما يلى :

الانطلاقة الأولى : وهى توجب اتخاذ الأسباب التى دلّت عليها سنن الله التكوينيّة ، فالكون وفق سنن الله الثابتة الدائمة ، ترتبط تغيّراته بأنظمة أسبابه ، والخارق نادر لا يجوز الاعتماد عليه ، فإذا حصل بعد استنفاد الطاقة السببية التى هى من مستطاع الناس ، فهو معونة توفيقية ربّانية ، ولا ينزّلها الله إلاّ بقدر ، ولحكمة عالية .

ومن حكم خرق السنّن الثابتة تقديمُ برهان إقناعىّ لمحتاج إليه فعلا من براهين الإيمان بالله ، أو تقديم دليل لتثبيت الإيمان وتقويته ، وصرف الريب أو الشك عمّن تعانى نفسه شيئًا من ذلك من المسلمين ، أو لرفع نِسْبَةِ القوة المعنوية فى نفوس المؤمنين ،

وإمدادها بالطمأنينة والثباتِ والبُشرى ، فى معارك القتال ، كما حصل للمؤمنين فى بدرٍ والأحزاب .

وهنالك حكمٌ أخرى سبق بيان بعضها .

الانطلاقة الثانية : وهى توجب طاعة الله فى أحكام شريعته التى أنزلها لعباده ، سواء أكانت أحكام عبادات لا تدخل فى نظام الأسباب التكوينية الظاهرة ، أوكانت من قبيل الأسباب التكوينية التى يتوصل إليها الناس بوسائلهم الإنسانية ، وقد أمرنا الله باتخاذها ، وجعل طاعته فى ذلك عبادة ، لارتباط اتخاذ هذه الأسباب بمصالح الدين ، كالأمر بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وكالأمر بإعداد المستطاع من القوة ، أو أنّها كلّيّات تحدّد مفاهيم السلوك الإسلامى فى الحياة الدنيا ، كالأمر بالمشى فى مناكب الأرض لتحصيل الرزق ، أو هى من الأسباب الخفية التى قد يغفُل الناس عنها حين يلاحظون سنن الله فى أنظمة الأسباب التكوينية ، مع أنها من الحاجات التى لاغنى للناس عنها فى كلّ عصر ، كالأمر بالبحث عن الدواء المزيل لعلّة المرض .

الإنطلاقة الثالثة : وهى توجب توجّه القلب والفكر وجوانب النفس كلّها لطمأنينة التوكّل على الله ، فى دفع الموانع التى لا يستطيع الناس الإحاطة بها ، وفى استيفاء الأسباب الخفية التى يضاعف الله بها النتائج المرجوّة .

ومتى صحّت هذه الانطلاقة الثالثة كانت معانى التوكّل على الله ، والاعتماد عليه ، ماثلةً فى ساحة التصوّرات العاملة داخل نفس المؤمن ، دون أن نبطّىء من حركة الانطلاقتين الأولى والثانية

أيّ مقدار . بل هي في وضعها السويّ تزيد من حركتها . وتمنحها قوىً إضافيَّة من مخزون الجسد . ومن شجاعة النفس . ومن عزم الإيمان . ومن معونة الله .

(٧)

نتائج غير سارة للأغاليط في هذا الموضوع

وحول هذا الموضوع تقع أغاليط كثيرة . ويسقط فيها كثير من المسلمين . حتى من قادة العمل الإسلامي . ونجد مرتكب الأغاليط نفسه بعد ذلك يتحمّل تبعات أغاليطه . وقد يتحمّل غيره معه ذلك . وقد تحلّ الكارثة بجمهور كبير من المسلمين نتيجة هذه الأغاليط .

ويمدّ هنا الشيطان خراطيمه موسوسًا . ومشكّكا بالله . أو بعدله . أو بحكمته . ويقع النّاس بذلك في محنة وبلاء هما أشدّ ممّا كانوا عليه من قبلُ .

وما ذلك إلاّ ثمرة سوء فهمهم لأحكام الله ولدينه . ويريدون مع ذلك يتقبَّل الله أغاليطهم ، ويخالف أحكام سننه التكوينيّة وقد عاندوها . وأحكام تكاليفه التشريعية الدينية وقد عصوها . زعمًا منهم أنّهم كانوا صادقين في التوكّل عليه . والله هو العليم بخبايا النفوس . وما تخفي من نِيّاتٍ وغايات .

(٨)

أمثلة

١ ـ إنَّه ليس من حق المؤمن بالله أن يحرث في البحر . ويبذر

فى السباخ ، ويتوكّل على الله ليعطيه أفضل ما يعطى الزارعين .

فإذا أعطى الله الزارعين الكافرين به الذين تقيّدوا بأحكام السنن التكوينية ، زرعًا جيدًا ، وإنتاجًا حسنًا ، على قدر ما بذلوا من جهد ، عتبَ على ربّه ، وقال : هل الكافر خير منى حتّى يخيّب زرعى ويعطيه زرعًا جيدًا ، وإنتاجًا حسنًا ؟ . إنّ هذا الفهم عجيب ! !

يا أيّها الجاهل بالله وبدينه وبسننه ، اعلم أنّ الله عزّ وجلّ لا يُغيّر سُننه التكوينيّة وأحكام تكاليفه الشرعية مراعاةً لجهلك وأغاليطك ، أو مرعاةً لهواك ، ولو فعل ذلك لفسد نظام الكون ، فأهواء الناس لا نهاية لها ولا ضابط ، والله عليم حكيم قدير لا يتّبعُ أهواء الناس ، واستمع إلى قول الله عزّ وجلّ فى سورة (المؤمنون

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١)﴾

إنّ تصاريف ربنا عزّ وجلّ منضبطة بالحق والعدل والحكمة ، وأنت تريدها أن تتبع هواك ، أو تراعى جهلك ، أو غفلتك ، أو أغاليطك . لا تطمع بهذا ، ولا تظنّنّ أنّ عبادَتَكَ المحصنة تُغْنِيك عن عبادتك باتّخاذ الأسباب التكوينيّة التى أمرك الله باتخاذها ، ليحقق لك النتائج التى ترجوها فى الحياة الدنيا ، حتى العبادات المحصنة الواجبة لا يغنى بعضها عن بعض ، فأعط كلّ ذى حقٍّ حقه ، وقد جعل الله كلّ شىءٍ قدرًا .

يا أيها الجاهل بالله وبدينه وبسننه ، لقد عاندتَ أحكام سنن

الله التكوينية دون إذن من الله ، وعصيْتَ أحكام تكاليفه الدينية الشرعية ، وتريد مع ذلك أن يعطيك ثمرة عمل لم تفعله .

لقد أخذت ثمرة عملك الذى فعلت ، وهى الخيبة . فلا تلومَنَّ إلاَّ نَفْسك .

إنّ من حرث فى البحر وبذر فى السّباخ خاب ولم ينبتْ له زرع ولم يكن له ثمر .

أمّا ادعاؤك بأنّك كنت صادق التوكّل على الله ، فإنْ كنْتَ صادقًا فعلاً ، فلك ثوابٌ عليه يوم الدين إن شاء الله ، مع مؤاخذتك على معصيتك فى مخالفتك لأحكام تكاليف الله الدينية التشريعية ، وقد آخذك فى الدُّنيا على معصيتك فى مخالفتك لأحكام سننه التكوينية فأعطاك جزاءك خيبة وفشلاً .

٢ ـ إنّه ليس من حقّ المؤمن بالله أنْ يحزّ رقبة ولده بالشفرة الحادّة متوكّلاً على الله بأن لا يجعل ولده ذبيحًا . فإذا وجد ولده ذبيحًا بعد ذلك وفقده ، عتب على ربّه وقال : لماذا لم يسلّم الله لى ولدى كما سلّم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، حين تلّه أبوه للجبين وأراد ذبحه ، ففداه الله بذبح عظيم ؟

يا أيها الجاهل الغبى ، هل أنت نبىّ وأمرك الله بهذا الذبح وباشرت العمل طاعة لله تعالى ، حتى تطالبه سبحانه بأن يفدى ولدك بذبح كما فدى إسماعيل ؟

إنّك فيما فعلت إمّا مجرم قاتل سفّاح ، أو مجنون لا عقل لك ، وتريد مع ذلك أن يغيّر الله سنّنه التكوينية وأحكامه التشريعية مراعاة لحماقتك ، أو غلطك وفهمك الفاسد عنه .

إنّك لابدّ أن تتحمّل وزر عملك ، وعقوبة حماقتك ، وثمرة جهلك الذى لا عذر لك فيه .

أمّا ادّعاؤك بأنّك كنت صادق التوكلّ على الله ، فهو ادّعاء غير مقبول أصلاً ، لأنّ صدق التوكّل على الله لا يكون مع ممارسة أمر حرّم الله عليك ممارسته . والخوارق مفتاحها بيد الله ، ولا يجلبها صدق التوكّل عليه ، إنّه تعالى لا ينزّلها إلاّ بقدر ، وحين تقتضى حكمته العالية إنزالها . وفى الأحوال التى يعطى الله فيها رسولاً من رسله مفتاح خارق من الخوارق ، فإنّ هذا الرسول لا يملك استخدام هذا المفتاح ما لم يأته الإذن الخاصّ باستخدامه ، فى واقعة معينة ، قضت حكمة الله بإجراء هذا الخارق فيها .

٣ ـ إنّه ليس من حَقّ المؤمن بالله العالم أو الجاهل بسنن الله التكوينية ، وبما أنزل الله فى أحكام التكاليف الدينيّة التشريعية لعباده ، أنْ يحمل سلاحه الضعيف ويهجم متوكّلاً على الله ، فيقاتل فى سبيل الله قوى طاغية كبرى لا تملك أسبابه التغلب عليها وفق سنن الله الثابتة مع زائد المعونة الربّانيّة المعتادة للمؤمنين الصابرين الصادقين .

فإذا تورط وجرّ لنفسه وقومه الدمار والهلاك والفشل والخيبة عتب على ربّه وقال : لماذا لم ينصرنا الله على عدوّنا ، وقد قمنا لنصرة دينه ؟ ! . هل الملاحدة والكافرون والمنافقون خير من الفئة المؤمنة المقاتلة فى سبيل الله ، حتى ينصرهم الله عليها ؟ !

ما أعجب هذا الفهم المجانب للصواب ! ! .

إنّ الله عزّ وجل لا يغيّر سننه التكوينيّة ، مراعاةً لجهل الجاهل

بها ، أو أغاليطه ومفاهيمه الباطلة ، واجتهاداته المخطئة فى فهم النصوص الدينية .

إنّ لله سننًا ثابتة يجب على المؤمنين أن يتقيّدوا بها ، ويراعوها ، ويتخذوا الأسباب التى تقتضيها وتوجبها ، ثم يتوكّلوا على الله ، ليمنحهم مزيدًا ممّا يحبّون من نتائج .

أمّا الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالطرق السلمية ، فهى فريضة على حملة الرسالة الرّبّانية ، مهمْا ضعُفت قوة الداعى وعظم طغيان المدعوّ .

ثمّ إذا تعرّض الداعى إلى الله بالأسلوب الذى أمر به الله ، لأى بلاء أو عذاب ، حتى صنوف القتل الشنيع ، من أجل دعوته السلمية فصبر واحتسب ، وأعطى كلّ تضحية يملكها ، كان عمله من أجلّ الأعمال وأعظمها وأفضلها عند الله ، وكانت شهادته من أفضل الشهادات لديه عزّ وجلّ .

ولابدّ أن نكون على بصيرة بأنّ من سنة الله فى مثل هذه الحالة ، أن تنتصر دعوة الداعى الرّبّانى فى قلوب الناس ، وإن سقط هو شهيدًا من أجل دعوته .

وذلك لأنّ عطف الناس على المظلوم يولدّ كراهية لظالمه ، ثمّ يولّد حقدًا عليه ، ثمّ كراهية لطريقته ومذهبه ، ثمّ التفاتًا جادًا إلى دعوة المظلوم ، وعندئذ فقد تذهب غشاوات كثيفة وغقبات حادّة ، عن بصائر كثير من الناس ، فيؤمنون بدعوة من سقط شهيد دعوته ، دون أن يحمل سلاحًا مادّيًا على من يدعوه ، غير سلاح الفكر والحجّة والبرهان والقول الليّن الحسن .

والأمثلة من التاريخ الكاشفة لسنّة الله فى ذلك كثيرة :

منها قصة غلام أهل الأخدود ، الذى كانت شهادته فى سبيل دعوته إلى الإيمان بالله ، سببًا فى إيمانِ شعب الملك الطاغى الظالم ، حتّى طار صوابُ الملك ، فخدَّ أخاديد النّار لشعبه ليرتدوا عمّا آمنوا به ، ويعودوا إلى ما كانوا عليه ، وسقط الكافر الظالم الطاغى فى شرّ عمله .

ومنها قصة المسيح عيسى عليه السلام ، فقد كانت محاولة صَلْبه لإخماد دعوته ، سببًا فى انتشار المسيحيّة على أيدى حوارييه وأتباعه ، فى طول الامبراطوريّة الرُّومانية وعَرْضها .

وفى كلّ عَصْر يقدِّم التّاريخ لمن يتعظون به أمثلة على هذه الحقيقة ، وهى تَدُلُّ علَى سُنَّةِ الله فى هذا المجال .

فهل من مدَّكر ؟ !

* * *

المقولة الثانية

أدلّة قرآنية وشرحها

١ ـ قال الله تعالى فى سورة (القمر ٥٤) وهى مكية :

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا ، وَقَالُوا : مَجْنُونٌ وازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ : أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤)﴾

وازدُجِر : أى : زُجِر بعنْفٍ وشدَّةٍ حتَّى لا يدعو إلى دِّين الله ، وحتى يكفَّ عن القيام بمهمّاتٍ رسالته ، والزاجرون له كُبراء قومه وأصحاب النفوذ والسلطان فيهم .

بماءٍ مُنْهمِر : أى منْصَبٍّ من السماء انصبابًا كثيرًا شديدًا .

فالتقى الماء على أمر قد قُدِر : أى على أمرٍ قد قُضىَ على قوم نوح ، وهو إهلاكهم غرقًا .

وحملناه على ذات ألواح ودُسُر : أى على الفلك المصنوعة من ألواح خشبية ، مثبّتةٍ بدُسُر ، والدّسُر هى المسامير التى تثبت بها الألواح حين جمع بعضها إلى بعض ، وواحد الدُّسُرِ دِسار ، مثل : كتاب وكُتب .

جزاءً لمنْ كانَ كُفِر : أى جزاءً معجلاً لنوح عليه السلام الذى كان كُفِر من قبل قومه ، أى جُحد وكُذّب .

فى هذا النصّ بيان أنّ نوحًا عليه السلام قد أعلن فى دعائه لربّه أنّه مغلوب ، إذ كانت قوّته لا تكافىء قوّة أعدائه بحسب قوانين الكون السببية ، وماكان فى مستطاعه أن يجمع ضدّهم قوة متكافئة ، لأنّ الذين آمنوا به عدد قليل .

وطلب نوح عليه السلام من ربّه فى دعائه هذا أن ينتصر له بخارق خارجٍ عن الأنظمة السببية التى يملكها الناس ، فاستجاب الله له ، فكان الانتصار بأن أوحى الله له أن يصنع الفلك ، حتى إذا أتمّ عمله ، جاء الله بالطوفان ، فأغرق الكافرين ، وأنجى الله نوحًا ومن كان معه وما حمل معه من دابّة .

ولم يقل الله عزّ وجلّ لنوح عليه السلام قم بسلاحك الضئيل وعددك القليل فقاتلهم ، وإنى أنصرك عليهم .

بل أمره بأن يتخذ لنفسه ولمن معه وسيلة النجاة ، وأعلمه بأنه سيتولّى إهلاكهم بالخارق ، وقال له : إنهم مُغرَقون .

وكان فى مقدور الله أن ينصره عليهم لو قاتلهم وحده ، أو مع القلّة القليلة التى آمنت به ، ولكن لم يشأ الله ذلك ، لئلا يظن الدعاة إلى الله من بعد نوح أنّ مثل هذا العدد الذى كان مع نوح عليه السلام كافٍ لمواجهة أمّة كافرة ، ذات أعداد وافرة .

وقد قصّ الله على رسوله محمد (ﷺ) قصة نوح هذه بعد أن قال له فى السورة نفسها بشأن مشركى مكة : ﴿فتولّ عنهم﴾ أى : أعرض عن مقارعتهم ومجابهتهم ، واصبر عليهم ، مع المثابرة

على دعوتهم .

* * * *

٢ ـ ثمّ أنزل الله تعالى على رسوله قوله فى سورة (الأعراف ٧) وهى مكية :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا : آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (١٢٢)﴾

فبيّن الله لرسوله فى هذا النصّ لونًا من ألوان انتصار الحق على الباطل ، وهو الانتصار بالتفوّق المعنوى .

لقد انتصرت معجزة موسى على سحر سحرة فرعون . وكان هذا هو النصر الأوّل فى هذه المباراة .

ولمّا آمن سحرة فرعون بربّ موسى وهارون ، كان إيمانهم هو النصر الثانى لموسى على فرعون وملئه ، إذْ تحوّلت أداة فرعون التى كان يبارى بها ، فصارت أداة لموسى خصمه الذى يباريه ، وذلك حين أعلن السحرة أنهم آمنوا بربّ العالمين ربّ موسى وهارون .

ولقد كانت هذه الهزيمة الثانية أشدّ على فرعون من هزيمة سحر سحرته أمام معجزة العصا .

* * * *

٣ ـ ثمّ أنزل الله تعالى على رسوله بشأن موسى قوله فى سورة (القصص ٢٨) وهى مكية : **﴿قَالَ : سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ ، وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلاَ يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا . أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا**

الْغَالِبُونَ (٣٥)﴾

فأبان الله عزّ وجل لرسوله محمد ﷺ فى هذا النصّ أنّه وعد موسى وهارون عليهما السلام بأنه سيجعل لهما سلطانًا من المعجزة، تكون لهما به الحماية من فرعون وجنوده.

إن قول الله تعالى لهما: ﴿**فلا يصلون إليكما بآياتنا**﴾ يفيد أن حمايتهما ستكون بآيات الله (أى: بأمور ربّانية يتولاّها الله) لا بقواهما السببية الخاضعة لسنن الكونية الثابتة.

أمّا قول الله تعالى لهما: ﴿**أنتما ومن اتبعكما الغالبون**﴾ فقد جاء بيان الغلبة المرادة فى هذا الوعد الربّانى، بنجاة موسى وقومه، وبإهلاك فرعون وجنوده، وقد كان ذلك بمعجزة انفلاق البحر لموسى وقومه، وانضمامه على فرعون وجنوده.

ولم يأمر الله موسى وقومه يومئذٍ بقتال فرعون وجنوده، لأن وسائلهم السببية لم تكن كافية بحسب العادة مع زائد المعونة الربّانية المعتادة للمؤمنين، لمواجهة جيش فرعون وقواه المادّية وأسبابه وآلاته الحربية. كما أنّ قوم موسى لم يكونوا مؤهلين نفسيًّا ولا جسديًّا لمثل هذه المواجهة، فهم لم يتدرّبوا منذ أجيالٍ على القتال، بل وصلوا إلى حالة عاشوا بها فى مصر مكبّلين بالذلّة والصغار.

* * * *

٤ ـ أنزل الله تعالى على رسوله فى أواسط العهد المكى قوله فى سورة (الصافات ٣٧):

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ (١١٦)﴾

فأبان هذا النصّ أنّ ما كان وعدًا كما قد جاء فى آية القصص ، قد صار بعد ذلك حقيقة واقعة .

وسمّاه الله نصرًا ، ووصف موسى وهارون وقومهما بأنهم كانوا هم الغالبين ، مع أنّ النجاة وإهلاك فرعون وجنوده ، قد كان كلّ ذلك بالمعجزة الخارقة ، ولم يكن من قوم موسى إلاّ أن خرجوا معه فارّين من مصر ، ومتوجهين شطر البحر ، ولم يكن من موسى عليه السلام إلاّ أن ضرب البحر بعصاه كما أمره الله .

* * * *

٥ ـ وفى سورة (الصافات ٣٧) أيضًا ، أنزل الله على رسوله قوله :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأبصرهم فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥)﴾

فبعد الأمثلة التاريخية التى قدّمها الله فيما سبق من تنزيل ، والتى أبان لرسوله فيها كيف نصر نوحًا وموسى وهارون عليهم السلام بالآيات من عنده ، ذكر الله لرسوله محمد (ﷺ) فى هذا النصّ أنّ الأمثلة التاريخية التى سبق بيانها إنما هى أمثلة لسنة ثابتة ، سبقت بها كلمة الله لعباده المرسلين .

أى : وأنت يا محمد واحد منهم ، فأنت إذن منصور بنصر من عند الله لاريب فى ذلك .

ومن بنود هذه السنة الثابتة أمرٌ آخر يتناول جميع جند الله ولو لم يكونوا رسلاً ، وقد سبقت بها كلمة الله ، ونصّ القرار الرّبّانى

فيها هو :

﴿وإنَّ جندَنا لَهُمُ الغالبون﴾

ولكن يشترط فيهم أن يكونوا حقًّا جندًا لله عزّ وجل ، والمفروض فى جند الله أن يكونوا أداة مطيعة ، لا أن يكونوا أصحاب أهواء ، يُملون إرادتهم الخاصة دون تقيد بمنهج الله ، أو ينطلقون وفق أهوائهم على خلاف أوامر الله ونواهيه ، وعلى خلاف النهج الذى رسمه لهم .

وبعد بيان هذه السنة الثابتة من سنن الله ، صَرف الله رسوله عن التفكير بمواجهة أعداء دعوة الحقّ مواجهة مسلّحة ، فقال له :

﴿فتولّ عنهم حتى حين﴾

أى : لا تقاتلهم ، مع استمرارك فى دعوتك إلى الله على منهاجها . ﴿وأَبْصِرهم فسوفَ يُبصرون﴾

أى : وليكن بصرُك متابعًا ، مراقبًا لأعمالهم وتحرّكاتهم ، وما يدبّرون ويخطّطون ، فليس المراد من التولّى إغفال أمرهم ، والغفلة عمّا يكيدون ، بل المراد عدم مواجهتهم بالقتال ، والصبر على أذاهم .

فسوف يبصرون بعد حين من الدهر نتيجة صبرك عليهم ، وكيف أنّ الله يُهيّىء لك من التأييد والنصر ما لم يكن بحسبانهم ، وكيف ينزل بهم ممّا يكرهون ما لو عرفوه حقًّا منذ الآن لأسرعوا إلى الإيمان بك ، وإلى اتباعك .

* * * *

٦ ـ ثمّ أنزل الله على رسوله فى أوائل العهد المدنى فى سورة

(البقرة ٢) آيات الأمر بالقتال ، فقال تعالى فيها :

﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ . كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ . وَيَكُونَ الدِّينُ للهِ . فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ ، وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ ، فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ ، وَاتَّقُوا اللهَ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنْفِقُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥)﴾

وقال الله تعالى فيها أيضًا :

﴿وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً . وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥)﴾

ففى هذين النصين من سورة (البقرة) أوّل سورة مدنية أمرٌ للذين آمنوا بأن يقاتلوا الذين يقاتلونهم ، دون أن يعتدوا بتجاوز الحدود التى حدّها الله لهم ، وبأن يقتلوهم حيث وجدوهم .

وكان المعنىّ بهؤلاء الذين يقاتلون المؤمنين مشركى مكة ، لأنهم هم الذين أخرجوا الذين آمنوا من ديارهم وبلدهم ، وهم الذين فتنوا المؤمنين عن دينهم ليردّوهم كفّارًا بعد إيمانهم ، فمن قول الله

تعالى فى النص الأول :

﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدّ من القتل﴾
عُلم أنّ مشركى مكة هم المعنيّون .

ونلاحظ أنّ الله عزّ وجلّ قد أمر الذين آمنوا بقتال الذين ظلموهم وأخرجوهم من بلدهم ، واتخذوا الوسائل لفتنتهم عن دينهم ، بعد أن تكوّن للمسلمين فى المدينة دولة وقاعدة قتالية .

ونلاحظ فى النصّين معًا التوجيه إلى اعداد العدّة للقتال ، ومعلوم أنّ أوّل شروط هذا الإعداد هو الإنفاق المالى ، فالمقاتل لا يستطيع أنْ يقاتل من غير أعتدة حربية وتموين ، وهذه لابدّ لها من مال ، والمال لا يأتى فى حالة السّلم إلاّ بإنفاق الأمّة التى تُعدّ أنفسها لقتال أعدائها ، وإذا دخلت الحرب دون إعداد ما يلزم لها من أعتدة وتموين كان ذلك ارتماءً بجهالة وغباءٍ إلى التهلكة ، ولذلك نجد فى النصّ الأول قول الله تعالى :

﴿وأنفقوا فى سبيل الله ولا تُلْقُوا بأيديكم إلى التهلكه وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين﴾

ونجد فى النصّ الثانى عقب الأمر بالقتال مباشرةً قول الله تعالى :

﴿من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفَهُ له أضعافًا كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه تُرجعون﴾

وعقب ذلك ضرب الله مثلاً تاريخيًّا من أمثلة النّصر عن طريق قتال المؤمنين لأعدائهم ، وكيف حقّق الله الغلبة للفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الكافرة ، فقال تعالى فى سورة (البقرة ٢)

نفسها :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى المَلأ مِنْ بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِى لَهُمُ : ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللهِ . قَالَ : هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا ؟ . قَالُوا : وَمَالَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا . فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِم الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا . قَالُوا : أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ، وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ . قَالَ : إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ، وزَادَهُ بَسْطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ، وَاللهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ : إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ . إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ : إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى ، وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّى إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ، فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ ، فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا : لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ . قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُوا اللهِ : كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا : رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى

الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾

فى هذا المثل التاريخى إعداد نفسى وحركى للرسول وللمسلمين لظروف حرب قادمة نُعِد لها القيادة الإسلامية . ويُعدّ المسلمون أنفسهم لها . فمرحلة الإعراض عن مواجهة أعداء الرسالة والصبر على أذاهم قد انتهت . وجاء دور المواجهة . والبدء بمقاتلة الذين يقاتلون المؤمنين منهم .

وفى هذا المثل التاريخى بيان انتصار الصفوة المنتقاة من جماهير بنى إسرائيل بقيادة « طالوت » الذى بعثه الله ملكًا عليهم . على « جالوت » وجنوده .

وهذا المثل قد اشتمل على أنّ جند الله من بنى إسرائيل يومئذٍ قد توافرت لهم الشروط الكافية لتحقيق الانتصار . وذلك ضمن سنة الله الكونية المؤيّدة بمعونة الله المعتادة للمؤمنين .

فبنو إسرائيل قد وجدوا من أنفسهم فى ذلك الحين القدرة على مواجهة أعدائهم . حتى قال الملأ منهم لنبّىٍ لهم : **﴿ابعث لنا ملكًا نقاتلْ فى سبيل الله﴾**

فناقشهم نبيّهم فى هذا الطلب . وقال لهم : **﴿هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألاّ تقاتلوا ؟ !﴾**

فأجابوا بأنّ لديهم من الدوافع النفسية ما ينفخ فيهم الحميّة ويثيرُ فيهم الحماسة إلى قتال أعدائهم . فقالوا :

﴿وما لنا ألاّ نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ؟ !﴾

لكنّ هذا الكلام من رؤسائهم وأعيانهم لم يكن له فى واقع

حال جماهيرهم الكثيرة إلاّ نصيب قليل . فأكثرهم ظالمون . ولذلك :

﴿فلما كُتب عليهم القتال تولّوا إلاَّ قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾

وقد استجاب الله لطلب الملأ منهم . فاختار لهم ملكًا عليهم . من أقلّ أسباطهم مكانة اجتماعية فيهم . وهو « طالوت »

فاعترضوا على هذا الاختيار . وقالوا :

﴿أنّى يكون له الملكُ علينا ونحن أحقّ بالملك منه . ولم يؤت سعة من المال ؟ !﴾

فأجابهم نبيُّهم :

قال : **﴿إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤتى ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾**

وكانوا بحاجة نفسية إلى آية فوق بلاغ نبيهم لهم . وهذه الآية تثبت لهم أنّ الله قد اختار لهم « طالوت » ملكًا عليهم . فقدّم لهم نبيّهم آية ملكه . وهى مجىء تابوتهم المفقود . تحمله الملائكة لهم . عندئذٍ أقرّوا بملكه .

وخرج طالوت بالجنود من بنى إسرائيل ، ولكن رأى أن أكثرهم ليسوا مستعدين للقتال حقًّا . ورأى أن وجود هؤلاء فى جيشه مثبّط وربّما يسبّب الهزيمة لكل الجيش إذا انهزموا أو اضطربوا . أو تخلخلت بهم الصفوف . فأراد أن يختبرهم . ويصطفى منهم من يمكن أن يصدق القتال حقًّا . إذا حصلت المواجهة بينهم وبين جالوت الجبار . وجنوده الأشداء .

﴿فلما فَصَل طالوت بالجنود﴾

واتجه بهم شطر عدوهم . ومضى بهم فى الطريق حتى علم أنهم قد اشتدّ بهم الظّمأ :

﴿قال : إنّ الله مبتليكم بنهر . فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنّه منّى . إلاّ من اغترف غرفة بيده﴾

فسقط أكثرهم فى هذا الامتحان الذى هو أقلّ من مواجهة العدوّ بالقتال . إنّه الصبر على الظمأ فقط :

﴿فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم﴾

فلم يأخذ منهم معه إلى الحرب إلاّ الذين نجحوا فى هذا الامتحان . وكانوا بالنسبة إلى عدوّهم عددًا غير كثير .

فلما جاوز طالوت النهر هو والذين اصطفاهم من المؤمنين الصادقين . نظر هؤلاء فى عددهم وعدد عدوهم . فرأوا أنهم لا يكافئون قوة جالوت الجبار . وجنوده معه . فقالت الكثرة منهم لملكهم طالوت :

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾

وكان فى هذا الجيش المنتقى ثُلَة هم صفوة الصفوة . وكان هؤلاء حريصين على الاستشهاد فى سبيل الله . ويظنّون أن مناياهم قد قربت عن طريق الشهادة . فهم ملاقو ربهم وشيكًا . وهم مشوقون إلى هذا اللّقاء . ومتحمسون له . فقالوا لإخوانهم مطمئنين :

﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾

لقد كانت الموازنة فى أذهان معظم جيش طالوت المنتقى قائمة على حساب القوى المادّية فقط .

لكنّ صفوة الصفوة أضافت إلى ذلك القوة المعنوية لجيش الإيمان . وأضافت أيضًا المعونة الربّانية المعتادة فى سنة الله لجنوده المؤمنين . لاسيما أن مسيرتهم مصحوبة بنبىّ . وموجهة بأمر إلَهىّ . ومع ذلك فلم تدخل صفوة الصفوة هذه فى عملية الحساب النصر بخارق غيبى . بدليل استشهادهم بأمثلة من تاريخ الجيوش المؤمنة . إذ قالوا ﴿**كم من فئة قليلةٍ غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين**﴾

ونبّهوا على سلاح الصبر فى القتال بقولهم : ﴿**والله مع الصابرين**﴾ .

واطمأنّ الجيش . واستعدّ للمواجهة بكلّ احتمالاتها :

﴿**ولمّا برزوا لجالوت وجنوده قالوا : ربنا أفرغ علينا صبرًا . وثبّت أقدامنا . وانصرنا على القوم الكافرين .**

فهزموهم بإذن الله . وقتل داود جالوت . وآتاه اللهُ الملكَ والحكمة وعلّمه مما يشاء﴾

وكان « داود » عليه السلام أحد جند طالوت . ويبين الله الحكمة من تكليف المؤمنين قتال الكافرين . بعد استيفائهم الشروط اللازمة لتحقيق النصر بإذن الله . فيقول الله تعالى :

﴿**ولولا دفعُ اللهِ الناس بعضهم ببعض لفسدتِ الأرضُ ولكن الله ذو فضلٍ على العالمين**﴾

وهكذا نلاحظ أنه قد نزل الأمر بالقتال . ثم أتبع ببيان هذا

المثل التاريخى ، تمهيدًا لأحداث غزوة بدر الكبرى .

* * * *

٧ ـ وَفى سورة (الأنفال ٨) ثانى سورة مدنية نزلت نلاحظ ما يلى :

(أ) اهتمت بتسجيل ما تدعو العظة التاريخية والحكمة التربوية لتسجيله من أحداث غزوة بدر المظفرة .

(ب) فَصَّلَتْ عناصر كثيرة تتعلق بموضوع الجهاد فى سبيل الله بالقتال .

(جـ) أبان الله فيها أنّ الكافرين مغلوبون فى النهاية ، إنّهم ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله ، فسينفقونها ، ثمّ تكون عليهم حسرة ، ثمّ يغلبون ، لأنّ المؤمنين بقيادة الرسول ﷺ قد كانوا على المستوى الذى يؤهلهم للانتصار الكلّى على الذين كفروا ، فقال الله تعالى فى هذه السورة :

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، فَسَيُنْفِقُونَها ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُونَ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦)﴾

ولكن قد يتوهّم المؤمنون أنّ نصر الله لهم حينما يقاتلون أعداءهم إنما يكون بالآيات والخوارق والمعجزات ، فيبطئهم ذلك عن الاستعداد الكامل لمواجهة أعدائهم ، وفق السنن الكونية الثابتة ، ففرض الله عليهم فى السورة نفسها أن يُعدّوا كُلّ ما يستطيعون من قُوّة ، فقال الله تعالى فيها :

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ (٥٩)

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّا اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (٦٠)﴾

فالإعداد المطلوب من المؤمنين يجب أن يصل إلى المستوى الذى يرهب الأعداء الظاهرين فعلاً ، فَيُلْقِى الرعب فى قلوبهم ، ويجعلهم يضعفون عن مواجهة جيش المؤمنين .

بل ينبغى أن يزيد الإعداد على ذلك حتى يرهب آخرين من دون الأعداء الظاهرين ، وهؤلاء الآخرون لم يتصدّوا بعدُ لإعلان عداوتهم للمؤمنين .

وليُعطى هذا الإلزام باعداد المستطاع من القوة معنى الاجتهاد الكبير حتى يكون المؤمنون متفوّقين وسابقين على أعدائهم بوسائلهم المادّية ، جاءت آيته عقب قول الله تعالى عن الكافرين :

﴿ولاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لاَ يُعْجِزُونَ﴾

ففى هذا تنبيه ضمنى إلى أنّ سبق الكافرين الحالى بوسائلهم ليس مشكلة أَمَامَ عَزْمِ المؤمنين وتصميمهم ، إذْ باستطاعة المؤمنين أنْ يبدأوا الإعداد منذ الآن ، ويصبروا ويتريثوا حتى يكون لهم السبق بهذه الوسائل .

فالسبق الحالى للأعداء ليس من شأنه أن يقعد المؤمنين أصحاب الهمم ، أو يعجزهم ، إنّ الزمن طويل ، والمعركة مستمرّة ، ومع الصبر والتريث والإعداد بدأب تنقلب موازين القوى ، فيكون السبق للمؤمنين ، وعندئذٍ يظهر أنّ الكافرين

لا يُعْجِزُون .

إنَّ السابق الآن ، بأسلحته وأعتدته ليس من المستبعد أن يصير مسبوقًا بعد حين ، وإن المسبوق الآن ليس من المستبعد أن يصير سابقًا بعد حين . ولكنّ الشرط فى ذلك هو الإعداد المستمرّ بدأب لتحقيق السبق المرهب .

هذه المعانى دلّت عليها الجملة الحالية ﴿**ترهبون به عدوّ الله وعدُوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم**﴾ ومعلوم فى اللغة العربية أن الحال وصف لصاحبها قيد لعاملها ، أى : أعدوا إعدادًا يبلغ إلى مستوى الإرهاب المذكور وبه تكونون مرهبين فعلاً .

ولبيان أنّ إعداد القوة لا يتم إلاّ بالإنفاق المالى ، قال الله عزّ وجلّ فى آية الإعداد نفسها :

﴿**وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىْءٍ فِى سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ**﴾

ولئلاّ يتوهّم المؤمنون توهّمًا باطلاً يرون فيه أن إعداد المستطاع من القوة الذى يتحقق به نصر المؤمنين على الكافرين بوعد من الله جازم ، يكفى فيه أنّ أيّة ثُلّةٍ مؤمنة تُعِدُّ مستطاعها من القوة ، وتواجه الذين كفروا مهما كانت أعدادهم وقواهم ، فإنّ الله ينصرهم عليهم لا محالة ، أنزل الله فى سورة (الأنفال) نفسها ، بعد آية الأمر بالإعداد بيانًا لِنِسَب التكافؤ بين المؤمنين والكافرين ، حتى يتحقّق الانتصار الموعود به ، ملاحظًا فى هذه النِسَبَ مقادير القوة المعنوية لدى المؤمنين ، ومقدار المعونة الربّانية لهم التى جرت بها سنّته المعتادة ، دون إدخال الخوارق والمعجزات الغيبية فى ذلك .

إنّ هذه النسبة تتراوح بين مقدارين أعلى وأدنى :

المقدار الأعلى : أن تكون أسباب الكافرين المادّية عشرة أضعاف أسباب المؤمنين .

المقدار الأدنى : أن تكون أسباب الكافرين المادّية ضعف أسباب المؤمنين .

فحين يكون جيش المؤمنين من النخبة المؤمنة الصفوة أمثال العشرة المبشرين بالجنة ، فالعشرون الصابرون منهم يغلبون مئتين بإذن الله ، هذا وعد من الله ، والله لا يخلف الميعاد ، وقد ينصرهم الله على أكثر من هذه النسبة لكنه ليس وعداً متحتّم الوقوع ، فقد يحدث فى بعض الأحوال ، إنقاذاً لجُنود الدعوة الأوائل الذين لا رديف لهم ، أو لحكمة أخرى يعلمها الله .

وحين يكون جيش المؤمنين أخلاطاً ، فيه الصفوة ، وفيه آخرون كثيرون من مستويات إيمانية مختلفة ، فالمئة الصابرة يغلبون مئتين ، والألف الصابرون يغلبون ألفين من الذين كفروا بإذن الله ، هذا وعد من الله ، والله لا يخلف الميعاد ، أمّا مازاد على الضعف والحالة هذه فلم يقترن بالوعد بالنصر ، فإن حصل فهو فضل من الله ، ولكن القيادة الإسلامية قد لا يسمح لها بأن تتورط بمواجهة عسكرية تتضاءل فيها احتمالات النصر ، ولا تتحقّقُ فيها للإسلام أو للمسلمين مكاسب معتبرة والحالة كذلك .

وبين النسبتين العليا والدنيا تأتى درجات على مقدار إزدياد نسبة أصحاب الوزن الإيمانى الثقيل فى جيش المسلمين .

وللقيادة الاسلامية أن تحدّد هذه الدرجة بالنظر إلى خبرتها

بأفراد جيشها .

وفى بيان النسبتين العليا والدنيا قال الله تعالى فى سورة (الأنفال ٨) :

﴿يا أيُّها النبىُّ حَرّض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مئةٌ يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قومٌ لا يفقهون (٦٥) الآن خفف الله عنكم وعلم أنَّ فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئةٌ صابرة يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم ألفٌ يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين (٦٦)﴾

لقد نزلت الآية الأولى من هذا النصّ ، ثم بعد مدّة غير طويلة نزلت الآية الثانية منه ، إشعاراً بأن المجتمع الاسلامى يندُرُ أن يكون كلّه صفوة يعادل الواحد منهم عشرة أمثاله ، ولكن لا يصح أن تنزل واقعيته مهما نزلت على مستوى مكافأة جيش المسلمين لضعفهم .

ويدلّ قوله تعالى : **﴿الآن خفف الله عنكم﴾** على أنّ المسلمين يجب عليهم أن يصبروا لضعف قوتهم العسكريّة ، وأنّ الله سينصرهم إذا صدقوا وصبروا .

لكن ليس من حقّهم أن يتورطوا فى مواجهة أضعافهم وحالتهم كذلك ، ثمّ يطالبوا الله بتحقيق النصر لهم ، فإذا لم ينصرهم عتبوا على ربّهم ، أو شكُّوا فى حكمته .

هذه هى سنة الله التى ليس من حقّ المؤمنين أن يعاندوها .

٨ ـ ثم أنزل الله تعالى قوله فى سورة (آل عمران ٣) ثالث سورة مدنية نزلت :

﴿قُلْ للذين كفروا : ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد (١٢) قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئةٌ تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرةٌ . يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيِّد بنصره من يشاء . إنَّ فى ذلك لعبرةً لأولى الأبصار(١٣)﴾

أى : قد كان لهم آية فى فئتين التقتا متقاتلتين :

(أ) فئة مؤمنة تقاتل فى سبيل الله .

(ب) وأخرى كافرة تقاتل فى غير سبيل الله . كالطاغوت ، وأهواء أنفسها ، أو كبراً وبطراً ورياء الناس .

لقد أوعد الله الذين كفروا قبل ذلك فى سورة (الأنفال) كما سبق بيانه ، بأنَّهم سيغلبون ويحشرون إلى جهنم ، وكان ذلك عقب غزوة بدر الكبرى .

وهنا فى سورة (آل عمران) يأمر الله رسوله بأن يكرّر على أسماع الذين كفروا مضمون ما كان أنزله سبحانه فى سورة (الأنفال) من أنهم سيغلبون ويحشرون إلى جهنم .

وسورة (آل عمران ٣) قد جاء فيها تفصيل أحداث غزوة أحد .

وذكر أهل التأويل أن هذا النصّ منها نزل فى الذين كفروا من اليهود ، جواباً على تحدياتهم للرسول ﷺ والذين آمنوا معه . وأرى أنّه يشمل فى مضمونه كلَّ الذين كفروا ، وقد أثبت الواقع بعد حين كلّ ذلك .

وضرب الله للذين كفروا مثلاً قريباً من أمثلة سنة الله فى تأييده الذين آمنوا وصدقوا وصبروا بنصره . وهو مثل انتصار المؤمنين فى بدر الكبرى على مشركى قريش ، وقد كان المؤمنون (٣١٣) مقاتلاً

أو نحو ذلك ، والمشركون ما بين التسعمئة والألف . ولكنّ الله قلّلهم في أعين المؤمنين حتى لم يزيدوا في نظرهم عن مثليهم ، ليضاعف ذلك من بأس المؤمنين وشجاعتهم وثقتهم بتحقيق النصر ، فالمؤمنون في أدنى الحدود مستعدون لمواجهة ضعفهم من الذين كفروا ، وموعودون بالنصر عليهم ، إذا التزموا في قتالهم بمنهج الله لهم ، وبعد أن ضرب الله هذا المثل قال :

﴿إنَّ في ذلك لعبرةً لأولى الأبصار﴾ .

أي : إنّ في ذلك الذي جرى في بدر لعبرة يعتبر بها أولوا الأبصار إنّها حادثة من حوادث التاريخ قدَّمت مثلاً ، والأمثلة لا تصلح لأنْ تكون عبرة ما لم تكن نموذجاً لقاعدة عامّة ، أو سنة ثابتة من سنن الله في كونه ، ولمّا كانت هذه الحادثة من هذا القبيل صحّ أن تكون عبرة .

فما جرى في بدر إذن منسجم مع سنة الله المعتادة في نصر المؤمنين الصابرين على الذين كفروا .

ولئلّا يترك المؤمنين مع اتخاذ الأسباب واجب التوكّل على الله ، والثقة به ، وبأنّ بيده النّصر ، أنزل الله في سورة (آل عمران ٣) قوله خطاباً للمؤمنين :

﴿إنْ ينصركم الله فلا غالبَ لكم ، وإنْ يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٦٠)﴾ .

٩ ـ ثمّ أنزل الله تعالى قوله في سورة (النساء ٤) :

﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً (٧٤)﴾

ففى هذه الآية بيان لعنصر مهم من العناصر التى يجب على الجندى المسلم المقاتل أن لا يفرّط فيها ، إنّه عنصر القتال حتى النصر أو الشهادة (فيقتلْ أو يغلب) .

هذه هى القاعدة بالنسبة إلى الجندى المسلم ، إمّا أن يغلب أو يُقتل بين الكرّ والفرّ ، أمّا الانهزام فهو احتمال غير وارد أصلاً .

أمّا بالنسبة إلى الجيش الذى يتحرّك بأوامر قيادته ، فهو مطيع لما تأمر به القيادة ، حتى لو أمرت بالانسحاب كان عليه ذلك .

وواجب القيادة الاسلامية فى هذه الحالة النظر فى مقتضيات الخطط العسكرية التى تمليها ظروف المعركة .

فإن رأت أنّ الثبات مقرون باحتمال النصر أو السلامة بصفة راجحة أمرت بالثبات وبالصبر ..

وإن رأت أن الانسحاب هو الأسلم ، لأن احتمال النصر ضعيف واحتمال الهزيمة هو الراجح مع ما فيها من خسارة فادحة ، أو لأن الخسارة ستكون فادحة جداً لا يصح أن تُقدَّم ثمناً لما يجلبه النصر فى المعركة القائمة . فإنّ عليها أن تقرّر الانسحاب الذى هو من أساليب القتال ، فالقتال كرٌّ وفرّ .

١٠ ــ ثم أنزل الله عزّ وجلّ فى سورة (محمد ٤٧) بياناً كشف به الغاية من وجوب اتخاذ الأسباب القتالية ، لتحقيق انتصار المؤمنين على الذين كفروا .

إنّها غاية امتحان المؤمنين بالكافرين فى حركة الدعوة إلى الله ، وإقامة العدل ، وقمع الظلم والطغيان .

فغاية الامتحان فى ظروف الحياة الدنيا تستلزم ذلك ، ولو يشاء الله لانتصر من الكافرين بأقلّ من طرفة عين ، ولما احتاج لجيوش

المؤمنين حتى تقاتل فى سبيله ، ولكن ذلك يلغى حكمة ابتلاء الذين آمنوا ، ليكشف مستويات الصادقين منهم ، والذين هم دون ذلك ، وليمحّصهم ، وليميّز المؤمنين من المنافقين ، وليسجل أيُّهم كان أحسن عملاً .

قال الله تعالى فى سورة (محمد ٤٧) :

﴿فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرِّقاب . حتَّى إذا أثخنتموهم فشدُّوا الوثاق ، فإمَّا منّاً بعدُ وإمّا فداءً حتَّى تضع الحرب أوزارها . ذلك . ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض ، والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضلَّ أعمالهم (٤) سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنّة عرّفها لهم (٦) يا أيُّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٧) والذين كفروا فتعساً لهم . وأضلَّ أعمالهم (٨) ذلك بأنَّهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم (٩)﴾

١١ ـ ثم أنزل الله قوله فى سورة (المجادلة ٥٨) :

﴿إنَّ الذين يُحَادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين (٢٠) كَتَبَ الله : لأغلبنَّ أنا ورسلى إنَّ الله قوىٌّ عزيزٌ (٢١)﴾

فأبان الله فى هذا النصّ أنّ الغلبة له ولرسوله على الذين يحادّون الله ورسوله ، وهذا كتاب قضاه الله ، فهو سنة من سنن الله الثابتة .

وهذه الغلبة تكون على وجهين :

(أ) فهى إمّا أن تكون بظهور الحق على الباطل ظهوراً فكرياً بالحجّة والبرهان ، أو بالتجربة .. العملية ، وممارسات الحياة التى تكشف أنّ ما جاء من عند الله وبلّغه رسل الله حقّ وصدق ، وفيه

نفع وسعادة للناس .

(ب) وإمّا أن تكون بظهور الحقّ على الباطل ظهوراً فكرياً وعسكرياً معاً ، فيكون لحملة رسالة الله فى الأرض الظهور والفتح المبين ، والسلطان والتمكين .

ولكن لهذا الظهور البشرى لحملة رسالة الله شروطاً ، إذا تحققت فى أنفسهم أيّدهم الله بنصره ، فمكنهم فى الأرض ، وجعل لهم سلطاناً قوياً .

ومن هذه الشروط أن لا يوادُّوا من حادّ الله ورسوله ، كما جاء بعد هذا النص من سورة (المجادلة ٥٨) نفسها ، وهو قول الله تعالى :

﴿لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوادُّون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءَهم أو أبناءهم ، أو إخوانهم ، أو عشيرتهم . أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان . وأيَّدهم بروح منه ، ويدخلهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزبُ الله . ألا إنَّ حزب الله هم المفلحون (٢٢)﴾ .

١٢ ــ ثمّ أنزل الله فى أواخر العهد المدنى قوله تعالى فى سورة (المائدة ٥) :

﴿ومن يتولَّ الله ورسوله والذين آمنوا فإنَّ حزب الله هُم الغالبون (٥٦)﴾

فأبان هذا النصّ أنّ حزب الله هم الغالبون ، فقرار هذه السنة الربّانية قرار غير منسوخ ، إنّه من أواخر ما نزل من القرآن .

ولكن يشترط أن يكون المسلمون المؤمنون حزب الله حقاً .

وحزب الله هو الذى يتقيّد بأحكام شريعته لعباده ، وبأحكام سنن الله التكوينية التى نظم بها كونه ، وربط فيها النتائج بأسبابها ، ويكون مع ذلك صادق الإيمان ، صادق التوكّل على الله والثقة به ، ملتزماً بالشروط التى بيّنها الله لتحقيق النصر ، فى حالتى السلم والحرب .

ويكون أيضاً على يقين تام بأنّ اتخاذ الأسباب إنّما يُحقق الطاعة لله تعالى ، وأنّ الله من وراء الأسباب هو الذى يقضى بما يحب المؤمنون من تأييد ونصرٍ وتمكين ، وسلطان فى الأرض مبين .

الفصل الثانى

الفهم الإسلامى الصحيح
للجهاد فى سبيل الله

وفيه ثلاث مقولات :

المقولة الأولى : تعريف الجهاد ومجالاته .

المقولة الثانية : أهداف الجهاد فى سبيل الله وعناصره وشروطه .

المقولة الثالثة : محاولات التحريف فى مفاهيم الجهاد فى سبيل الله .

المقولة الأولى

تعريف الجهاد ومجالاته

(١)

تعريف الجهاد :

الجهاد لغة : كالمجاهدة ، تقول : جاهد يجاهد مجاهدة وجهاداً . أى : بذل جهداً فيه معنى المغالبة أو المنافسة لمعارض يشارك ببذل الجهد ، مغالباً ، أو منافساً ، أو مقاوماً صادّاً .

هذا ما تدلّ عليه صيغة : (فاعل يفاعل مفاعلة وفعالاً) كقاتل يقاتل مقاتلة وقتالاً . فى دلالة الصيغة معنى المشاركة على سبيل المغالبة أو المنافسة أو بذل الجهد من جهة والمقاومة له من جهة أخرى .

وفى الجهاد على هذا المعنى يبذل عادةً جهد زائد ، وقد يطلق الجهاد ويراد منه مجرّد بذل الجهد الزائد ، ولو لم يكن فى مقابلة مشارك مغالب أو منافس أو مقاوم .

والجهاد فى سبيل الله : تعبير داخل فى عموم المعنى اللّغوى بشكل عام ، إلّا أن له قيداً ، عاماً ، هو أن يكون فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، وقيوداً تفصيلية لكلّ نوع من أنواع الجهاد ، وهذه القيود مبينة فى كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وفيما استنبطه

علماء المسلمين ، وفقهاؤهم .

وسبيل الله : هو دينه ، وصراطه الذى رسمه لعباده حتى يسيروا فيه ، ويدخل فى ذلك : أحكام العقائد ، وأحكام العبادات ، وأحكام المعاملات والأخلاق والآداب ، والنظم ، وسائر أحكام الشريعة الرّبانية للناس .

وسبيل الله أيضاً ابتغاء مرضاته ، فى اتباع أوامره واجتناب نواهيه ، والتقيد بأحكام شريعته ، والوقوف عند حدوده ..

المراد من الجهاد فى سبيل الله :

من استعراض النصوص القرآنية المشتملة على مادة : «جاهد يجاهد مجاهدة وجهاداً» يتبيّن لنا أنّ المراد من الجهاد فى سبيل الله : أن يبذل المؤمن المسلم فى سبيل الله ، مما يملك من جهدٍ ، أو طاعة ، أو مالٍ ، أو أىّ شىء ذى نفع أو ذى تأثير ما ، سواءٌ أكان ذلك من نفسه ، أو من ماله ، أو من أى شىءٍ يخصّه ، أو من أى شىء له عليه سلطةٌ ما .

ويكون هذا البذل فى سبيل الله حقاً ، حين يكون بهدف نشر دين الله ، والدعوة إليه ، وتبليغه للناس ، أو تأليف القلوب عليه ، أو نصرته وتأييده ، أو الدفاع عنه ، أو إعلاء كلمة الله فى الأرض ، أو إقامة شريعة الله ومنهاجه الذى رسمه لعباده وحدّد حدوده ، مع ابتغاء رضوان الله فى كل ذلك .

(٢)

مجالات الجهاد فى سبيل الله

من التعريف السابق ، يتبين لنا أنه يدخل فى الجهاد فى سبيل

الله ، كلُّ مجالات البذل التالية وأشباهها ، من كلّ مأذون شرعاً ببذله :

الأول : بذل المال كثيراً كان أم قليلاً ، فى سبيل الله وابتغاء مرضاته ، لتحقيق هدف من الأهداف الآنفة الذكر .

الثانى : بذل طاقة الفكر فى البحث والتأمل ، لنصرة دين الله ، وشرح آيات كتاب الله ، وإيضاح تعاليمه ، واستنباط الأحكام الشرعية من مصادر التشريع ، والتأمل والدراسة والبحث لمعرفة الأدلة العقلية والتجريبية المؤيدة للحق الذى جاء به الدين ، وللتعرّف على الخطط الحكيمة للدعوة إلى الله ، والجدال بالتى هى أحسن ، ووضع خطط السلم ، وخطط الحرب الدفاعية والهجومية ، واستنباط الأفكار اللازمة لإعداد القوى المتفوقة على قوى أعداء الاسلام ، وغير ذلك من الأعمال الفكرية التى تخدم بالحق قضية دين الله لعباده ، ورسالة رسوله محمد ﷺ للناس أجمعين .

ونحو ذلك ممّا يخدم قضية الدين وقضايا المسلمين مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ .

الثالث : بذل قدرات اللّسان فى البيان النافع المؤثر ، لنشر دين الله ، وتبليغه للناس ، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وفى التلطف بالناس لتأليف قلوبهم على الاسلام وجذبهم إليه ، واستخدام الأدب الرفيع والكلام المعسول للتأثير على النفوس والأفكار فى مجال الدعوة إلى الله ، وفى ضبط اللّسان وكفّه عمّا

يؤذى وينفر من المسلمين ومن الإسلام .

ومن الجهاد فى مجال اللّسان الصمت أحياناً ، حين يكون الصمت واجباً ، والكلام ضارّاً ، ويكون هذا من الجهاد ، باعتبار أنّ ضبط اللّسان أحياناً لا يكون إلّا ببذل جهد نفسى كبير ، ويتطلب قوة إرادة فائقة ، ولعلّ ضبط اللّسان عند الثرثار أشدُّ عليه من كلام يجرُّه إلى حتفه .

ونحو ذلك مما يخدم قضية الدين وقضايا المسلمين مع ابتغاء رضوان الله عز وجل .

الرابع : بذل قدرات الكتابة والتأليف ، فى كتابة الموضوعات الإسلامية ، ذات النفع تعليماً أو إقناعاً ، أو تذكيراً أو توجيهاً ، أو موعظة حسنة ، وفى التأليف ، والتصنيف ، والترجمة ، والنشر ، لتوجيه الناس وتعريفهم بالحق ، ودعوتهم إلى دين الله ، والتقيد بأحكام شريعته ، ورفع لواء صراطه المستقيم ، وإقامة الحكم الإسلامى فى الأرض ، ونحو ذلك مما يخدم قضية الدين وقضايا المسلمين مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ .

الخامس : بذل حركة الجسد ، فى المشى ، والسعى ، والسفر ، والتنقل فى الأرض ، وغير ذلك من حركات ، لخدمة الأهداف السابقة نفسها ، سواء أكان ذلك بطريقة مباشرة ، أو بجمع المال من الباذلين ، أو بخدمة الدعاة إلى الله من المسلمين الأكفياء للدعوة ، أو بدعوة الناس لحضور مجالسهم ، والاستماع إلى كلمات الحق ، أو بمساعدة أى عامل يخدم قضية من قضايا الدين أو قضايا المسلمين ، مع ابتغاء مرضاة الله عزّ وجلّ .

السادس : التضحية بشهوات النفس ولذاتها وراحتها ، أو لذات الجسد وشهواته وراحته ، للإنصراف لخدمة قضية ما تدخل فيما تحتاجه رسالة الإسلام ، ومصالح الأمة الرّبانية المسلمة ، مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ .

السابع : الاجتهاد فى اعداد المستطاع من القوى المادّية والمعنوية ، والخطط اللازمة لذلك ، أو المساعدة فى عمل يهدف إلى هذه الغاية بأى لون من ألوان المساعدة ، مع ابتغاء رضوان الله عزّ وجلّ .

الثامن : التضحية بالحياة كلها ، إذا اقتضى أمر الدين ذلك ، وصار ما يجنى من نفع للاسلام أو للمسلمين ، أعظم من حياة الفرد الذى يضحى بنفسه ، ولهذه التضحية بالحياة صور كثيرة ، منها الصور التالية :

(أ) كلمة حق تقال عند سلطان جائر ، فيغضب السلطان ، فيقتل قائلها .

ونفع مثل هذه التضحية عظيم جداً ، فى كل وقت ، مهما كان الضغط على الاسلام شديداً ، ومهما كانت قوة المسلمين ضعيفة ، وهذا النفع يبرز فى انتشار فكرة الحق ، وامتدادها فى الجماهير ، لأنها تنزلق على أسباب عطفهم عليه قُتل مظلوماً ، فتدخل إلى قلوبهم وهم لا يشعرون .

وقد ضرب الرسول ﷺ لنا مثلاً لهذه التضحية قصة غلام أصحاب الأخدود ، والأمثلة من التاريخ عليها كثيرة جداً ، وفى كل وقت كانت سبباً فى انتشار فكرة صاحب التضحية ، ومُنى

الظالم الطاغى الباغى بعكس ما كان يريد ، لقد كان يريد بقتل الداعى إلى الحق قتل كلمة الحق ، فإذا بالداعى يُقتل . ولكن كلمة الحقّ تحيى فى قلوب الجماهير ، وتتوالد وتتكاثر وتنتشر ، ويكثر أنصارها والمؤيّدون لها والمؤمنون بها .

حتى التضحية من أجل المذهب الباطل قد يكون لها بعض هذا الأثر فى الجماهير.

(ب) الدخول فى صفوف الأعداء على سبيل التجسس ، لمعرفة ما لديهم من كيد ضدّ الإسلام أو المسلمين ، فإذا اكتشف أمره فقتل كان شهيداً مجاهداً فى سبيل الله ، بشرط أن يبتغى بعمله رضوان الله عزّ وجل .

(جـ) المجابهة القتالية المأذون بها شرعاً ، حينما تدعو الدواعى لذلك ، وتتكافأ القوى إجمالاً ، وتحين الفرصة المواتية ، ويغلب على ظنّ القيادة الإسلامية المفوضة بالبيعة الشرعية ، وعلى ظنّ أهل مشورتها ، إمكان النصر ، بالنظر إلى الأسباب المادية والمعنوية التى يملك الناس إعدادها .

أمّا الأسباب الغيبية فأمرها متروك إلى الله ، ويجلبها صدق التوكّل على الله والاستغفار والدعاء ، والتضّرع وإخلاص النية لله ويمدّ الله بها بالمقدار الذى تقتضيه حكمته عزّ وجلّ .

(٣)

استعراض النصوص القرآنية فى الجهاد :

أولاً : فى العهد المكىّ أنزل الله فى الجهاد النصوص التالية

مرتبة وفق مراحل التنزيل :

١ ـ أول نصوص الجهاد فى أواسط المرحلة المكية أو قبلها ، وهو قول الله عزّ وجلّ فى سورة (الفرقان ٢٥) خطاباً للرسول ﷺ ثم للمسلمين من بعده ، فى معرض الحديث عن القرآن :

﴿ولقد صرَّفناهُ بينهم ليذَّكروا . فأَبَى أكثر الناسِ إلَّا كُفُوراً (٥٠) ولو شئنا لبعثنا فى كلّ قريةٍ نذيراً (٥١) فلا تُطِع الكافرين . وجاهدهم به جهاداً كبيراً (٥٢)﴾ .

﴿ولقد صرّفناه بينهم ليذّكروا﴾ : أى ولقد صرّفنا القرآن بينهم ليتعظوا ، وتصريف القرآن تنويع أساليب البيان فيه ، وأساليب الدعوة إلى الحق ، وأساليب الجدال بالتى هى أحسن ، وتنويع ذكر الأمثال والاشباه والنظائر للاقناع بالحق ، وليقاس عليها ما لم يُذكر فى القرآن ، كما قال تعالى فى سورة (الاسراء ١٧) :

﴿ولقد صَرَّفنا فى هذا القرآن ليذَّكَّروا وما يزيدهم إلَّا نُفُوراً (٤١)﴾ .

وقال فيها أيضاً :

﴿ولقد صَرَّفنا للنَّاسِ فى هذا القرآن من كلّ مثلٍ فَأَبى أكثر النَّاسِ إلَّا كُفُوراً (٨٩)﴾

وكما قال الله تعالى فى سورة (الكهف ١٨) :

﴿ولقد صرَّفنا فى هذا القرآن للنَّاسِ من كلِّ مَثَلٍ . وكان الإنسانُ أكثر شىء جدلاً (٥٤)﴾ .

(والكهف) نزلت بعد (الإسراء) .

فدلّ التتابع فى بيان التنويع فى القرآن لأساليب الإقناع والتذكير والموعظة ، على تصاعد حال غير المستجيبين لدعوة الرسول ، من (كفور) ابتدائى ، وهو ما دلّ عليه النصّ من سورة (الفرقان) إلى (نفور) عن الآيات التى تضمّنت التصريف فى القرآن للاقناع والموعظة والتذكير ، وهو ما دلت عليه الآية الأولى من سورة (الاسراء) إلى (كفور) نهائى تصميمى عنادّى ، وهو ما دلت الآية الثانية من (الإسراء) إلى (مكابرة جدلية) وهو ما دلت عليه الآية من سورة (الكهف) رغم كل ما سبق أن نزل فى القرآن من تصريف وتنويع فى أساليب الدعوة والإقناع والمجادلة والعظة والتذكير.

ولكثيرٍ من المفسرين آراء أخرى فى المراد من قوله تعالى ﴿**ولقد صرفناه بينهم ليذَّكروا**﴾ فى سورة الفرقان ، التى نتدبّر النصّ منها إلّا أنها جميعًا بعيدة عمّا تدلّ عليه السورة فى النظرة الكلية إليها ، وعما يدلّ عليه موضوع التصريف للقرآن الوارد فى سور أخرى .

وقد أبان الله من أنواع تصريفه لأساليب الدعوة فى القرآن تنويع الوعيد فيه ، فقال تعالى فى سورة (طه ٢٠) :

﴿**وكذلك أنزلناهُ قرآناً عربياً وصَرَّفنا فيه من الوعيد لعلهم يتَّقون أو يحدث لهم ذكراً (١١٣)**﴾ .

وأبان أيضا تنويع الحجج ، فقال عزَّ وجلَّ فى سورة (الأنعام ٦) :

﴿**قُل : أرأيتم إنْ أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم ، مَنْ إلَهٌ غير الله يأتيكم به ؟ انظر كيف نُصَرِّف الآيات ثمَّ هُمْ يصدفُون (٤٦) قُل : أرأيتكُم إنْ أتاكم عذابُ الله بغتةً أو**

جهرةً ، هل يُهلَكُ إلّا القوم الظالمون ؟ (٤٢)﴾

وبعد بيانات جدلية طويلة قال عزّ وجلّ أيضاً فى السورة نفسها :

﴿قُل : من ينجيكم من ظلمات البرِّ والبحر تدعونه تضرعاً وخفيةً : لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ؟ (٦٣) قل : الله ينجيكم منها ومن كُلّ كربٍ ، ثم أنتم تُشركون (٦٤) قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم ، أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ، ويذيق بعضكم بأسَ بعضٍ . انظر كيف نصرِّفُ الآياتِ لعلّهم يفقهون (٦٥)﴾

يلبسكم شيعاً : أى يخلطكم أحزاباً وفرقاً متنافرة متعادية متقاتلة .

ثم قال تعالى فى السورة نفسها بعد عرض أدلة كثيرة على وجوده وعظيم صفاته ، ومنها علمه وعدله وقدرته :

﴿قد جاء كم بصائرُ من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ (١٠٤) وكذلك نصرِّفُ الآياتِ ، وليقولوا : دَرَسْتَ ، ولنبيّنَهُ لقومٍ يعلمون (١٠٥)﴾

ولا تطع الكافرين : أى لا تستجب لرغباتهم ومطالبهم المتعنتة ، كقولهم الذى حكاه الله قبل هذا النص من سورة (الفرقان ٢٥) نفسها بقوله تعالى :

﴿وقال الذين كفروا : لولا نُزِّل عليه القرآن جملةً واحدةً . كذلك لِنُثَبِّتَ به فؤادك ورتَّلْناهُ ترتيلاً (٣٢)﴾

وكقولهم الذى حكاه الله فيها أيضاً :

﴿لولا أُنزل إليه مَلَكٌ فيكون مَعَهُ نذيراً (٧) أو يلقى إليه كنزٌ ، أو تكونُ له جَنَّةٌ يأكل مِنْها ...(٨)﴾

وجاهدهم به جهاداً كبيراً : أى وجاهد الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً .

ومجاهدة الكافرين ، لا تكون بحمل القرآن ومقاتلتهم به ، ولا تكون بمجرّد ترتيله وتلاوته ، ولا تكون بقراءته عليهم على سبيل الرقية ، ليكون شفاءً لهم من الكفر إنّما تكون باستخدام أدلته ، وأساليب بيانه ، وشرح حججه وجدليّاته ، والاستفادة من طرائق ترغيبه وترهيبه ، واتّباع منهجه فى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتى هى أحسن ، وعرض مفاهيمه ، مع اقتفاء حكمة الله التى تكشفها مراحل تنزيل القرآن .

وهذا الجهاد بالقرآن يجب أن يكون جهاداً كبيراً مستمراً ، ويجيب على المؤمنين القيام به فى كلّ حين ، وهو منهاج الدعوة إلى الله الذى لا ينقطع مادام فى الأرض مؤمنون وكافرون ، ولو مع قيام الجهاد بالقوى العسكرية المسلّحة بالحديد والنار ووجود الفرصة المتاحة لذلك .

فالجهاد بالفكر هو القاعدة وهو الأساس ، أمّا الجهاد بالأسلحة المادّية فضرورة يوجبها واقع الصراع الذى يفرضه دعاة الباطل والضلال ، والطغاة والبغاة والمفسدون فى الأرض ، وهو يشبه فى الطبّ الأعمال الجراحية الخطيرة ، ويشبه فى الدفاع المدنى عمليّات إطفاء الحريق ، ويشبه فى الأمن الداخلى مكافحة اللصوص ،

والمجرمين ، وقطاع الطرق ، والصائلين ، والبغاة .

وقبل الأمر بمجاهدة الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً ، نزل الأمر بالتذكير بالقرآن .

والتذكير بالقرآن نوع لطيف من أنواع الدعوة إلى الله ، وهذا يكون فى أوائل مراحل الدعوة إلى الله ، بالنسبة إلى الفئة التى توجّه لها الدعوة ، كما نستفيد ذلك من مراحل التنزيل ، فقال الله عزّ وجلّ لرسوله فى آخر سورة (ق ٥٠) بعد أمره بأن يصبر على ما يقولون :

﴿نحن أعلم بما يقولون . وما أنت عليهم بجبّارٍ . فذكّرْ بالقرآن من يخاف وعيد (٤٥)﴾

ولابدّ أن نكون على بيّنة بأنّ خطاب الرسول هو خطاب لجميع المؤمنين ، ما لم يكن الأمر من خصائص الرسول ﷺ بدليل خاصّ .

فخطاب الرسول ﷺ بأن ينذر بالقرآن ، وبأن يجاهد الكافرين به جهادًا كبيرًا ، هو خطاب يعمّ جميع المؤمنين ، وهذا التكليف مستمر لم ينقطع ، ولن يقطع مادام فى الأرض مؤمنون وكافرون ، ونزول الأمر بالقتال فى المرحلة المدنية بعد هذه النصوص المكية ، ولا يوقف العمل بمضامينها ولا استمراريّة هذا العمل ، فالدعوة إلى الله ، والجهادُ بها ، وبالقرآن ، هما القاعدة وهما الأساس ، وهما الوظيفة الدائمة ، والرسالة المستمرّة للمسلمين ، فهم أمّة الدعوة إلى الله ، وهم أمّة تبليغ رسالة رسول الله ﷺ ، وهم الشهداء على الناس بهذا التبليغ يوم الدين .

ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله فى سورة (لقمان ٣١) :

﴿ووصَّينا الإنسان بوالديه حملته أمُّه وهنًا على وهنٍ ، وفصاله فى عامين ، أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير (١٤) وإنْ جاهداك على أن تُشرك بى ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفاً ، واتّبع سبيل من أناب إلىَّ ، ثمَّ إلىَّ مرجعكم ، فأنبئُكم بما كنتم تعملون (١٥)﴾ .

فكشف هذا النصّ أعنف معركة جهادية على النفس الإنسانية ، لما فيها من صراع داخلى تشتبك به أقوى العلاقات الإنسانية ، وأعظمها حقوقاً وواجبات ، إنّها معركة مجاهدة إيمانية بين الابن المؤمن ووالديه الكافرين ، اللذين يجاهدانه على أن يترك دينه الحقّ ، ويشرك بالله ، ويعود إلى الضلالة والغىّ ، بعد الهداية والرشد .

ودلّ النصّ هنا على أنّ مجاهدتهما له مقرونة باستخدام سلطتهما عليه وتأثير نفوذهما الإجتماعى على سلوكه ، والإصرار عليه بأمرهما ونهيهما . دلّ على هذا قوله تعالى فى النصّ : **﴿وإنْ جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾** فاستخدم كلمة (على) لما فيها من معنى الاستعلاء والتكليف واستخدام سلطة الأمر والنهى .

واكتفى النصّ فى هذه المعركة الجهادية بين الإبن المؤمن ووالديه الكافرين ، بتكليف المؤمن أمرين :

الأمر الأول : عدم طاعة والديه الكافرين فى دعوتهما له أن يشرك بالله .

الأمر الثانى : أن يصاحب والديه فى الدنيا بما هو معروف فى

مصاحبة الوالدين ، فيرفق بهما ، ويؤدى لهما حقوقهما من النفقة والخدمة ، والطاعة فى غير معصية الله ، وهذا يقتضى عدم الإغلاظ عليهما فى دعوتهما إلى الله .

ومن بدائع هذا النصّ ونظائره ، تمجيده لدلائل العلم والمعرفة الإنسانية فى قضية هى من أصول الدين وبديهيّاته ، إذ قال عزّ وجلّ :

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾

فأضاف فقرة : «ما ليس لك به علمٌ» مع أنّ أحداً لا يملك دليلاً علمياً يثبت فيه لله شريكاً .

إذن : فالله يرضى لنا أن نتبع مناهجنا العلمية الصحيحة الصادقة ، ولا يطالبنا بمخالفتها ويُشعرنا بذلك حتى فى أهم قضية من قضايا الدين ، التى هى من الحقائق الظاهرة ، ذات الأدلة القطعية البرهانية .

٣ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ قوله فى سورة (النحل ١٦) :

﴿ثمَّ إنَّ ربَّك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا ثُمَّ جاهدوا وصبروا . إنَّ رَبَّك مِنْ بَعْدِهَا لغفورٌ رحيمٌ (١١٠)﴾

نزلت هذه الآية بمناسبة الذين فتنوا فى دينهم فى مكة ، إذ تعرَّضوا لضغوط المشركين عليهم ، ولإيذائهم ، ومجاهدتهم لهم بالعنف حتى يرتدوا عن دينهم ، ويعودوا إلى الشرك بالله ، أو خافوا أن يتعرّضوا لمثل ذلك فكتموا اسلامهم ، وأسروه فى انفسهم وكانوا لا يملكون قوة دفاع عن أنفسهم .

فكان من هؤلاء من ارتدّ ، كعبد الله بن أبى سرح ، وكان منهم

من قال كلمة كفر تقية ، وقلبه مطمئنّ بالإيمان ، كعمّار بن ياسر ، وكان منهم من أسلم واستخفى باسلامه ، فلم يظهره أمام قومه .

وهؤلاء قد دعاهم الله فى هذه الآية إلى الهجرة ، لضعفهم عن مقاومة ضغط المشركين وأذاهم ، ثم إلى الجهاد فى الثبات على الإيمان والدعوة إلى الله ، والصبر على المشقات التى يتعرّضون لها من أجل إيمانهم ، وفى هجرتهم ، وفى دعوتهم إلى الله ؛ ووعدهم سبحانه بأن يغفر لهم ما كان منهم من ضعف إرادة ، أو ضعف تحمّل ، ووعدهم بأن يشملهم برحمته .

فالمجاهدة هنا تبرز فيها معانى مقاومةِ ضغوط طغاة الكافرين ، على الضعفاء المؤمنين ، وتحمّل مشقات الهجرة ، والغربة ، والدعوة إلى الله حيثما حلّوا ، وحيثما ارتحلوا .

٤ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ فى أواخر العهد المكىّ قوله فى آخر سورة (العنكبوت ٢٩) :

﴿والَّذين جاهدوا فينا لنهديَنَّهم سُبُلَنا ، وإنَّ الله لمع المحسنين (٦٩)﴾

من الواضح أنّ الجهاد المراد فى هذه الآية هو جهاد المقاومة لضغوط أعداء الاسلام من المشركين ، وجهاد الصبر ، وجهاد اتّخاذ السبل للهجرة والفرار بالدين .

وفى هذه الآية إشارة ضمنيّة للضعفاء الذين فُتنوا فى دينهم ، أن يتّخذوا أىّ سبيل ، ليتخلّصوا بالهجرة من ضغوط الكافرين ذوى السلطان والجبروت فى مكة ، فإذا فعلوا ذلك بإحسان وتصرّف حكيم ، هداهم الله إلى سُبُل نجاتهم وسلامتهم ، وإنّ الله

لمع المحسنين ، أمّا الذين لا يُحسنون التّصرف ، فيتحرّكُون لتحقيق غاياتهم تحركاً أهوج طائشاً ، ولا يتخذون شروط السببيّة الملائمة ، فإنّ الله عزّ وجلّ لم يعدهم بأن يكون معهم .

ويقع كثير من المؤمنين السُّذج فى غلط فاحش حيال هذه الحقيقة ، فيسيئون التصرّف ، ولا يتخذون الشروط السببية الملائمة ، ويطالبون الله بأن يكون معهم حامياً وناصراً تصوّراً منهم أن الإحسان فى العمل بمفهوم الدين قاصر على جوانب خاصّة تتعلّق بالعبادات المحضة ، ولا ينطلقون مع الأبعاد الكاملة لقول الرسول ﷺ فى تعريف الإحسان : «**أن تعبد الله كأنّك تراه**» ويغفلون عن قول الرسول ﷺ فى الحديث الصحيح : «**إنّ الله كتب الإحسان على كلّ شيء**»[1]

فالله سبحانه وتعالى يعلّم المؤمنين فى هذه الآية ، أن يكونوا محسنين فى اتخاذ الأسباب المناسبة للهجرة من بلدٍ يفتنون فيه بدينهم ، حتى يكون معهم ساتراً وحافظاً وناصراً .

وضرب الرسول ﷺ بعد ذلك المثل الكامل فى هذا الموضوع ، حين أذن الله له بالهجرة .

إن الله عز وجل يكون مع المحسنين الذين يحسنون التصرف فى أعمالهم ويتقنونها ولا يكون مع المتساهلين ولا الفوضويين ، ولا الذين لا يتقنون أعمالهم ، ولا يتخذون أفضل الوسائل لما يبتغون من خير .

---

(١) رواه مسلم .

وغير وارد إطلاقاً تفسير السُّبل فى قول الله تعالى فى هذه الآية ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا﴾ بالسُّبُل الدينيّة . بل هى سُبُل سلامتهم ونجاتهم وخلاصهم من أعدائهم فى الحياة الدنيا ، وسُبُل هجرة آمنة ، معها تأمين سبل الرزق والمعاش . وذلك لما يلى :

نحن نعلم من البيان القرآنى أنّ سبيل الله فى الدين واحدة غير متعدّدة ، وأن الله عزّ وجلّ قد أمر فى قضية الدين باتباع سبيله الواحدة غير المتعددة ، فالنصوص التى تحدّثت عن منهج الله فى الدين جاءت كلّها بلفظ المفرد لا الجمع .

كلُّ ما جاء فى القرآن من ذلك بلفظ «الصراط» جاء مفرداً ، فصراط الله لم يأت مجموعاً مرّة واحدة ، وبلفظ «المنهاج» لم يأت إلّا مرة واحدة مفرداً ، وبلفظ «السبيل» نلاحظ أن كلّ النصوص التى يتضمن السياق أنّ المراد تعاليم الدين قد جاء اللفظ فيها بالأفراد ، ولم يأت مجموعاً إلّا فى موضوعات سبل الأرض وسبل الرزق ونحو ذلك ، وهى النصوص التالية :

١ ـ قول الله عزّ وجل فى سورة (النحل ١٦) :

﴿وأوحى ربُّك إلى النحل : أَن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشَّجر ومما يعرشون (٦٨) ثُمَّ كُلى من كُلِّ الثمرات ، فَاسلكى سُبل ربّكِ ذُلُلاً ... (٦٩)﴾

٢ ـ وقول الله عزّ وجلّ فى سورة (النحل ١٦) أيضاً :

﴿وألقى فى الأرض رواسى أن تميدَ بكم وأنهاراً وسُبُلاً لعلكم تهتدون (١٥)﴾

٣ ـ وقول الله عزّ وجلّ فى سورة (طه ٢٠) :

﴿الذى جَعَلَ الأرض مَهْداً ، وسَلَكَ لكم فيها سُبُلاً ... (٥٣)﴾

٤ ـ وقوله عزّ وجل فى سورة (الأنبياء ٢١) :

﴿وجعلنا فى الأرض رواسى أن تميد بهم ، وجعلنا فيها فجاجاً سُبُلاً لعلهم يهتدون ٣١﴾

٥ ـ وقوله عزّ وجلّ فى سورة (الزخرف ٤٣) :

﴿الذى جَعَلَ لكم الأرض مَهداً وجعل لكم فيها سُبُلاً لعلّكم تهتدون (١٠)﴾

٦ ـ وقوله عزّ وجلّ فى سورة (نوح ٧١) :

﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً (١٩) لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً (٢٠)﴾

يضاف إلى ذلك أن الله عزّ وجل أمر باتباع سبيله ، ونهى عن اتّباع السُبُل ، لأنها تتفرّق بالناس عن سبيل الله ، فتقذفهم إلى المتاهات ذات اليمين وذات الشمال . وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة (الأنعام ٦) :

﴿وأنَّ هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتَّبعوا السُّبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تتَّقون (١٥٣)﴾ .

فهذه الآية حاسمة فى الموضوع ، وما أظنّ أنّ حجّةً تستطيع أن تنهض بعد بيان هذه الآية .

ولم يبق لدينا إلّا ثلاث آيات نستطيع أن نخرجها وفق هذه القاعدة القرآنية .

الآية الأولى : آية (العنكبوت) التى نحن فى صدد تدبُّرِها ، وقد ظهر لنا المراد منها بتوفيق الله .

والآية الثانية : هى قول الله عزّ وجلّ فى سورة (المائدة ٥) :

﴿... قد جاءكم من الله نورٌ وكتابٌ مبينٌ (١٥) يهدى به الله من اتَّبع رضوانه سُبُلَ السَّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم (١٦)﴾

سُبُل السلام : أى طرق السلامة والنجاة فى أمور دنياهم ، ولكيلا نفهم أنّها سُبل فى الدين قال الله تعالى فى آخر الآية : **﴿ويهديهم إلى صراطٍ مستقيم﴾** .

والآية الثالثة : هى قول الله عزّ وجلّ فى سورة (إبراهيم ١٤) حكاية لمقالة الرسل لأقوامهم :

﴿وما لنا أَلَّا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ؟! ولنصبرنَّ عَلَى ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون (١٢)﴾

هذه الآية تتحدّث عن أنواع الضغوط الآثمة الظالمة ، وأنواع الأذى ، التى كان يتعرّض لها الرسُل من قبل الكافرين الطغاة من أقوامهم ، والتى جعلت الرسل عليهم السلام يعلنون توكلهم على الله ، ويعلنون أنه لا يوجد أىُّ داعٍ لليأس من النجاة من ظلم الكافرين لهم ، وقد هداهم الله سبُلَهم لتحقيق هذه النجاة ، فأمامهم الخروج من أرض الكفر والظلم إذا أذن الله لهم بذلك ، وقد دلّ على هذا الآية التالية لها : وهى قول الله تعالى فى سورة إبراهيم (١٤)

﴿وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا ، أو

لتعودنَّ فى ملتنا ، فأوحى إليهم رَبُّهم لنهلكن الظالمين (١٣) ولنسكننكم الأرض من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى ، وخاف وعيد (١٤)﴾

ويظهر بجلاء أنّ هذا النصّ من سورة (المائدة) ، يحكى قصة مشابهة تماماً ، لما جاء فى آية (العنكبوت) التى نتدبّرها ، وقد ظهر أنّ المراد من السُبل فيها سُبلُ النجاة والسّلامة الدنيوية من إرهاب الكافرين أعداء الدّين .

وبهذا يكون الموضوع قد استجمع أطرافه كلّها ، وظهر المراد بتوفيق الله ومعونته .

٥ ـ وفى أوّل سورة (العنكبوت **٢٩**) أنزل الله إحدى عشرة آية مدنية ، مع أن السورة فيما عدا هذه الآية مكية .

وهذه الآيات تتحدّث عن فتنة المؤمنين فى دينهم ، فتابعت حركية الموضوع الذى جاء فى سورة (النحل) والذى من أجله ألمح الله عزّ وجلّ للمفتونين فى دينهم فى الآية التى سبق شرحها من سورة (العنكبوت) بأن يجاهدوا جهاد الهجرة والصبر والتحمل ، وأن يحسنوا التصرف فى ذلك ، ويتخذوا أحكم السبل والوسائل والأسباب ، ليكون الله معهم ساتراً وحامياً وناصراً ، ويهديهم سُبُل نجاتهم وسلامتهم .

فقال الله عزّ وجلّ فى سورة (العنكبوت **٢٩**) :

﴿ألم (١) أحسب الناسُ أن يتركوا أن يقولوا : آمنّا ، وهُم لا يفتنون ؟ (٢) ولقد فتنّا الّذين من قبلهم فليعلَمَنَّ الله الّذين صَدَقُوا وليعلمنَّ الكاذبين (٣) أم حَسِبَ الّذين يعملون السيئات أن

يسبقونا ؟ ساءَ ما يحكمون (٤) من كانَ يرجوا لقاء الله فإنَّ أجلَ الله لآتٍ ، وهو السميع العليم (٥) ومن جاهد فإنَّما يجاهد لنفسه ، إنَّ الله لغنيٌّ عن العالمين (٩) والذين آمنوا وعملوا الصَّالحات لنكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولنجزينَّهم أحسن الَّذى كانوا يعملون (٧) ووصَّينا الإنسان بوالديه حُسناً ، وإنْ جاهداك لتُشرك بى ما ليس لك به علمٌ فلا تطعهما ، إلىَّ مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون (٨) والّذين آمنوا وعَمِلُوا الصَّالحات لندخلنَّهُم فى الصَّالحين (٩) ومن النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : آمنا بالله ، فإذا أوذى فى الله جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاس كعذابِ الله ، ولئن جاء نصْرٌ من ربِّكَ لَيَقُولُنَّ : إنّا كنَّا معكم ، أو ليس الله بأعلم بما فى صُدورِ العالمين (١٠) ولَيَعلَمَنَّ الله الَّذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين (١١)﴾ .

فبسطت هذه الآيات ما يتعلق بفتنة الذين يقولون : آمنا ، صادقين فى إيمانهم ، إنّهم يفتنون فى دينهم من قبل أعداء الدين ، فيؤذونهم لأنّهم آمنوا ، ويوجهون ضدّهم الضغوط المتنوعة ، ليرتدوا عن الاسلام ، ويعودوا كافرين مشركين .

والفتنة فى الدين مصيبة تتكرّر فى المجتمعات البشرية ، وهى من مظاهر الصراع الدائم بين الحقّ والباطل ، والخير والشرّ ، والإيمان والكفر .

والله عزّ وجلّ لا يتدخل تدخُّلاً مباشراً لتغيير هذه الظاهرة المتكرّرة فى المجتمعات البشرية ، لأنّ حكمته تعالى تقتضى أن يمتحن عباده ، حتى يعلم الذين صدقوا فى الانتماء إلى الدين ، ويعلم الكاذبين الذين حرّكتهم المطامع أو المخاوف الدنيوية ، أو دفعتهم

نفحات عارضات لاثبات لها .

لكن قوى الكافرين مهما عظمت وفاقت قوة المؤمنين ، فهى لن تسبق قوة الله حين تقتضى حكمته بأن ينصر أولياءه الصادقين ، وينزل بأسه على الذين كفروا وفسقوا وطغوا فى الأرض .

فعلى المؤمنين إذن : أن يجاهدوا ليؤكدوا صدق إيمانهم ، والمجاهدة هنا فى هذه المرحلة تكون بالصبر ، والثبات ، واتخاذ الوسائل للخلاص من الفتنة ، بالهجرة إلى دار الإسلام التى أصبحت فى المدينة آمنة مطمئنة للمؤمنين .

ونلاحظ أنّه بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة ، وقيام دولة الإسلام فيها ، ضعفت نوعاً ما شوكة المشركين فى مكة ، فصار ضغط الآباء على أبنائهم الذين يسلمون أقلّ ممّا كان عليه قبل ذلك ، لقد كان فيه معنى الاستعلاء والقهر ، فأنزل الله يومئذ خطاباً للابن المؤمن :

﴿وإن جاهداك على أن تُشْرِكَ بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾

وكانت وصية الله للإبن بهما فى حدود : **﴿وصاحبهما فى الدنيا معروفاً﴾** .

أمّا بعد أن قامت دولة الإسلام فى المدينة ، وغدا ضغط الوالدين فيه معنى استخدام وسائل الحيلة والملاينة والتحويل عن الإيمان برفق ، الأمر الذى دلّ عليه قوله تعالى فى النصّ المدنى :

﴿وإن جاهداك لتُشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ .

فاستخدم حرف (ل) لا حرف (على) كما كان فى النصّ المكى ،

فى هذا الوضع جاءت وصية الله للإبن بوالديه ، أرقى من مجرّد المصاحبة بالمعروف ، إذ جاءت بصيغة :

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حُسْناً﴾ .

ولابدّ أن نلاحظ أنّ الحسن الذى أوصى الله به أرقى من مجرّد المصاحبة بالمعروف .

وأمّا الوالدان الموافقان فى الدين الحقّ ، فقد أوصى الله الإبن بالإحسان إليهما ، و(الإحسان) أرقى مرتبة من (الحسن) الذى هو أرقى مرتبة من (مصاحبتهما فى الدنيا معروفاً) .

والوصية بالإحسان إلى الوالدين نجدها فى قول الله عزّ وجلّ فى سورة (الأحقاف ٤٦) :

﴿ووصَّينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمّهُ كرهاً ووضعته كرهاً . وَحَمْلُهُ وفصالُهُ ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشُدَّهُ وبلغ أربعين سَنَةً ، قال : ربِّ أوزعنى أنْ أشكر نعمتك الَّتى أنعمت علىَّ وعلى والدىَّ وأنْ أعمل صالحاً ترضاهُ ، وأصلحْ لى فى ذُرِّيَّتى ، إنّى تُبتُ إليك ، وإنّي من المسلمين (١٥)﴾ .

ونلاحظ أيضاً فى النصّ الذى نتدبّره من أوائل سورة (العنكبوت ٢٩) أنّه قد تعرّض للذين لا يثبتون حينما يفتنون فى دينهم ، لأنّ إيمانهم لم يكن ذلك الإيمان الصّادق الثابت الراسخ المتمكن ، فإذا أوذوا من قبل طغاة الكافرين لأنّهم أسلموا ، ظنّوا بالله الظنون ، فقال تعالى فى شأنهم :

﴿ومنَ الناسِ منْ يقولُ : آمنَّا بالله فإذا أوذىَ فى الله جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاس كعَذَابِ الله﴾

أى فهو بسبب ضعف إيمانه أو نفاقه يتّهم حكمة الله بتمكين الكافرين من تعذيبه ، ويلقى المسؤولية على القضاء والقدر .

وقد جاء التعليق القرآنى على هذا الصنف من الناس بقوله تعالى :

﴿أوليس الله بأعلم بِمَا فى صُدُور العالمين﴾

أى : من صدق إيمان ، أو ضعفه الشديد ، أو كذبه .

إن من حكمة الله فى تمكين الكافرين من إيذاء المؤمنين وتعذيبهم ، أن يكشف الصادقين فى إيمانهم ، ويكشف المنافقين ، ويكشف من هم بين الفريقين السابقين من ضعفاء الإيمان . وبياناً لذلك قال الله عزّ وجل فى آخر النصّ :

﴿وليعلمن الله الذين آمنوا ، وليعلمنَّ المنافقين﴾

ثانياً : وفى العهد المدنى أنزل الله عزّ وجلّ فى الجهاد النصوص التالية مرتّبة وفق مراحل التنزيل :

١ ــ فى أوّل سورة مدنية وهى سورة (البقرة ٢) أنزل الله تعالى بشأن الجهاد فى سبيل الله قوله :

﴿إن الَّذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفورٌ رحيمٌ (٢١٨)﴾

هذه الآية أضافت إلى معنى الجهاد فى أفكار المسلمين جهاد القتال فى سبيل الله ، إنسجاماً مع حركية العمل الإسلامى لبناء الأمة الربّانية ونشر الإسلام فى الأرض .

فصار الجهاد فى سبيل الله يعنى جهاد الدعوة إلى سبيل الله بكل وسائلها ، وعلى وفق منهج القرآن ، وجهاد الصبر والنيات ، وجهاد

الهجرة فى سبيل الله ، وإن أخذت الهجرة عنواناً مستقلاً ، وجهاد القتال فى سبيل الله ، متى قامت دواعيه وتهيأت وسائله ، وأذن به منهج الله للمؤمنين .

والدليل على إضافة معنى القتال فى سبيل الله ، فى عموم الجهاد فى هذه الآية ، أنّها قد نزلت بعد آيات الأمر بمقاتلة المعتدين من السورة نفسها ، وهى قول الله عزّ وجلّ ، خطاباً للذين آمنوا :

﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إنّ الله لا يحب المعتدين (١٩٠) واقتُلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشدُ من القتل ، ولاِ تقاتلوهم عِند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإنْ قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين (١٩١) فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيمٌ (١٩٢) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنةٌ ويكون الدين لله ، فإن انتهوا فلا عدوان إلّا على الظالمين (١٩٣) الشهرُ الحرام بالشهر الحرام ، والحرمات قصاصٌ ، فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتَّقوا الله ، واعلموا أنَّ اللهَ مع المتقين (١٩٤) وأنفقوا فى سبيل اللهِ ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ، وأحسنوا إنَّ الله يُحبُّ المحسنين (١٩٥)﴾

فأمر الله عزّ وجلّ فى النصّ المسلمين بقتال من يقاتلهم من الكافرين ، ونهاهم عن الاعتداء .

وأبان سبحانه أنّ الإخراج من البيوت والأموال وبلد الوطن من أجل الدين ، هو بمثابة القتال الذى يؤذن معه بالقتال .

ونهى عن القتال عند المسجد الحرام فى مكة ، إلّا إذا بدأ

الكافرون بذلك .

وأبان أنّ الفتنة فى الدين والإكراه على الكفر أشدّ من القتل ، فهى من الأمور التى يؤذن بالقتال لدفعها أو رفعها .

وحدّد غاية القتال بارتفاع الفتنة فى الدين والإكراه على الكفر . وبين أنّ الزمان الذى يحرم فيه القتال ـ وهى الأشهر الحُرم ـ مثل المكان الذى يحرم فيه القتال ، فمن اعتدى بالقتال فيه جاز مقابلته بالمثل قصاصاً .

وأبان عزّ وجلّ واجب الإعداد للقتال قبل البدء به ، وأبرز قيمة بذل المال لتحقيق هذه الغاية ، فقال تعالى : ﴿**وأنفقوا فى سبيل الله**﴾ . وكلٌّ خبير بالحروب يعلم بداهة أن أوّل خطوة من خطواتها ، البدءُ بجمع الأموال اللازمة لها ، ورصدُ الميزانية التى تقتضيها ، ولا يكون ذلك إلّا بانفاق الأمّة لهذه الغاية ، ثم يكون التدريب وإعداد القوة اللازمة ، ورسم الخطط الحربية ، إلى غير ذلك من أمور .

وألجم الله العواطف الثائرة الغاضبة ، حتى لا تثور فى غير جدوى بعد الإذن بالقتال ، وحتى لا تندفع برعونة ، قبل استكمال الإعداد الكافى لخوض المعركة ، فقال تعالى :

﴿**وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهلُكَةِ**﴾

فالأمر بالقتال مشروط بالبدء باتخاذ أسبابه الكافية ، هذا ما يدلّ عليه النصّ ، وهذا ما يقتضيه العقل ، وهو ما تثبته التجارب .

ولمّا كانت قضية الإعداد للحرب ليست من العبادات العادية التى يكفى فيها المقدار الأدنى ، وهو مقدار التقوى ، بل ينبغى لها

الاتقان إلى درجة الإحسان ، قال الله عزّ وجلّ فى آخر فقرات النص :

﴿وأحسنوا إنّ الله يحبّ المحسنين﴾ .

وأنزل الله عزّ وجلّ فى سورة (البقرة ٢) أيضاً ، بعد عدّة آيات من النصّ السابق قوله تعالى :

﴿كُتبَ عليكم القِتال وَهُوَ كُرهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكمْ وعسى أن تحبُّوا شيئاً وهُو شرٌّ لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون (٢١٦) يسألونكَ عن الشَّهرْ الحرام قِتَالٍ فيه ؟ . قل : قِتَالٌ فيه كبيرٌ . وصدٌّ عن سبيلِ الله وكفرٌ بهِ والمسجد الحَرام وإخراجِ أهله مِنه أكبر عِندَ الله . والفتنةُ أكبرُ مِنَ القَتْل . ولايزالُون يُقَاتِلُونكم حتى يرُدُّوكمْ عن دينكم إنِ استَطاعُوا . وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فأُولئكَ حَبِطَتْ أعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وأُلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خالِدُونَ (١٠٧)﴾ .

وعقب هذا النصّ أنزل الله قوله :

﴿إنَّ الَّذِين آمَنُوا والَّذينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فى سبيل الله أُولئك يرْجُون رحمتَ الله والله غفورٌ رحيمٌ (٢٠٨)﴾

فحين نفهم أنّ النصّ قد أضاف فى حركية الجهاد معنى القتال ، فإننا لابدّ أن نفهم أنّ المعانى الأخرى للجهاد باقية ومستمرة ، ولكن أضيف إليها معنى القتال .

فهو إذن منذ الآن يدخل فى حساب مدير الحركة العامّة . فيقرّره إذا دعت الحاجة القصوى إليه ، وكانت الاستعدادات له مكافئة لاحتمالات النصر ، وفق نظام الأسباب والمسبّبات .

وبيانات الله ورسوله .

٢ ـ ثمّ أنزل الله عزّ وجلّ فى آخر سورة (الأنفال ٨) ثانى سورة مدنية ، قوله تعالى :

﴿إنَّ الَّذين آمنوا وهَاجروا وَجَاهَدُوا بِأموالِهمْ وأنفُسِهِمْ فى سبيلِ اللهِ ، وَالَّذين آوَوْا ونَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَالذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَىءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا ، وَإنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِى الدِينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ ، إلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ . والله بمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ . إلَّا تَفْعَلُوه تَكُنْ فِتْنَةٌ فى الأرضِ وَفَسَادٌ كبيرٌ (٧٣) وَالَّذينَ آمنوا وهاجَروا وجَاهَدوا فى سبيل الله وَالَّذين آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ المؤمنونَ حَقَاً ، لهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) والَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وجَاهَدُوا مَعَكُمْ فأولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُم أَوْلَى بِبَعْضٍ فِى كِتَابِ اللهِ ، إنَّ اللهَ بكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ .

فجاء التركيز فى هذا النصّ على قضيتى الجهاد بالأموال والأنفس ، بعد قضيّة الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام .

وقد عرفنا أن الجهاد بالأموال لإعداد القوة اللازمة سابق للجهاد بالأنفس فى معارك القتال ، أمّا فى غير معارك القتال وما أشبهها ، فإنّ الجهاد بالأنفس فكراً ، وجسداً ، ولساناً وقلماً ، قد يكون سابقاً للجهاد بالأموال ، ولا يغِبْ عن تصوّرنا ما للجهاد بالأموال من قيمة عظيمة فى كلّ المشاريع الإسلامية ، وأهمُّها مشاريع الدعوة إلى الله ، ونشر دين الله ، وتبليغه للناس أجمعين .

وتعليم علوم الدين ، عن طريق المعلّمين والدعاة ، أو عن طريق مختلف وسائل الإعلام ، وفى مقدمتها نشر الكتاب الإسلامى المناسب لمستويات القرّاء .

وفى هذا النص بيان لأحكام الموالاة بين المسلمين ، بحسب اختلاف الأحوال ، والأحكام التى اشتمل عليها النصّ ، تتلخص بما يلى :

الحكم الأول : المهاجرون والأنصار الموجودون فى دار الإسلام كتلة واحدة ، متآخون ، متناصرون ، متعاونون ، متساعدون ، متباذلون ، بعضهم أولياء بعض . فالموالاة بينهم تامّة ، تشمل التناصر ، والتآخى ، والتعاون ، والتساعد على تأمين مطالب الحياة ، وكلّ ما يدعم صلة الإخاء فى جسديّة واحدة .

فالمهاجرون قد جاهدوا بأموالهم وانفسهم مع هجرتهم واغترابهم عن ديارهم ، والأنصار قد آووا المهاجرين ونصروهم ، وبذلوا لهم من أموالهم ومن معوناتهم الجسدية ، وعاملوهم معاملة إخوانهم من النسب ، وأفضل .

دلّ على حكم الموالاة التامة بين عناصر هذا الفريق قول الله تعالى فى النص :

﴿إنَّ الَّذِين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأَنفسِهِمْ فى سبيلِ اللهِ ، والذينَ آوَوْا ونَصَرُوا أُولئِكَ بَعْضُهُمْ أولِيَاءُ بَعْضٍ﴾ .

الحكم الثانى : ويوجد فريق آخر من المسلمين ، وهم الذين آمنوا ولم يهاجروا فى سبيل الله إلى دار الإسلام ، بل بقوا فى دار الكفر .

فهؤلاء ليس بينهم وبين أهل دار الإسلام من المهاجرين والأنصار موالاة ، لانقطاع الصلة وتعذّر قيام موالاة بينهما ، إذ لا يملك كلٌّ من الفريقين الحرّية الدولية فى أن يُمدّ الفريق الآخر بالمناصرة الدائمة ، والمعونة والمساعدة المتشابكة فى إخاء جماعى ، تبرز آثاره فى الممارسات اليومية .

لكن هذا الفريق الذى آمن ولم يهاجر ، إذا أوذى فى الله من أجل دينه ، وضغط عليه الطغاة الكافرون فى بلد إقامته ، فى أمر دينه ، وطلب النصرة من جماعة المسلمين أهل دار الإسلام ، فإنّ على جماعة المسلمين فى دار الإسلام أن ينصروه فى هذا الأمر ، بشرط أن لا يتعارض ذلك مع عهد خاص بين أهل دار الإسلام وذوى سلطان بلد هذا الفريق المستنصر .

وقد دلّ على هذا الحكم قول الله عزّ وجلّ فى النص :

﴿والَّذينَ آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيءٍ حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدّين فعليكم النَّصرُ ، إلَّا عَلَى قومٍ بينكم وبينهم ميثاقٌ والله بِمَا تعملون بصيرٌ﴾ .

الحكم الثالث : لا موالاة بين الذين آمنوا والذين كفروا ، فالذين كفروا بعضهم أولياء بعض ، والانفصال فى عناصر الولاء المتبادل قائم دائم بين المؤمنين والكافرين ، دلّ على هذا قول الله فى النص : **﴿والَّذين كفروا بعضهم أولياء بعض﴾** .

ولكنّ قطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين لا يقتضى منع المؤمنين من أن يبرّوا الكافرين ويقسطوا إليهم ، إذا لم يُقاتلوهم فى الدين ولم يخرجوهم من ديارهم ، بدليل قول الله عزّ وجلّ فى سورة

(الممتحنة ٦٠) :

﴿لا يَنهَاكم الله عن الَّذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوك
من دياركم أنْ تَبَرُّوهمْ وتقسطوا إليهم ، إنَّ الله يُحبُّ المُقسط
(٨) إنَّما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدِّين ، وأخرجوكم م
دياركم ، وظاهَروا على إخراجِكم ، أنْ تولوهم ، ومن يتولَّه
فأولئك هُمُ الظَّالمُون (٩)﴾

الحكم الرابع : من استدرك أمره من المؤمنين الذين لم يهاجر
إلى دار الإسلام ، فهاجر إلى دار الإسلام ، وجاهد
المجاهدين ، فإنّ أحكام الفريق الأول تُجرى عليه ، فتكون
حقوق الموالاة كاملة ، ويكون عليه أيضاً واجبات هذه الموالاة
وكذلك من آمن بعد ذلك وهاجر وجاهد فى سبيل الله .

دلّ على هذا الحكم قول الله تعالى فى النص :

﴿والَّذين آمنوا من بعدُ وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئ
منكم﴾

الحكم الخامس : أحكام الموالاة العامّة بين المؤمنين ، وا
سبق بيانها ، لا تتعارض مع أولوية الموالاة بين أولى الأرحام
المؤمنين ، فأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ، و
أحكام التوارث ، فالأحكام العامة لا تتعارض مع الأحـ
الخاصة ، مادام الخاص داخلاً فى العام ، فأولوا الأر
المقصودون هم من المؤمنين أيضاً ، ولكنّ لهم الأولوية فى الموالا
لحقّ الإسلام ولحق الرحم .

وقد دلَّ على هذا الحكم قول الله تعالى فى النصّ :

﴿وأولوا الأَرحام بعضهم أوْلى ببعضٍ فى كتاب الله﴾

وأبان النصّ أنّ الإخلال بأحكام الموالاة التى فرضها الله ينشأ عنه فتنة فى الأرض وفساد كبير.

فالفتنة فى الأرض تحصل إذ يرى الكافرون تفرق المؤمنين، وعدم موالاة بعضهم لبعض، فيتسلّطون على أجزاء منهم، فيفتنونهم فى دينهم، فلا يناصرهم إخوانهم المؤمنون ولا يؤونهم، فيضعف المفتونون عن المقاومة، فيتأثرون بالضغوط، فيكفرون، فيحصل فساد كبير.

وفى بيان ذلك قال الله عزّ وجل فى النص:

﴿إلَّا تفعلُوه تكُنْ فتنةٌ فى الأرض وفسادٌ كبيرٌ﴾

وخصّ الله الفريق الأول بالثناء فقال فى شأنهم: هم المؤمنون حقاً، ومنحهم المغفرة، ووعدهم برزق كريم فى الحياة الدنيا. فقال عزّ وجل فى النص:

﴿والَّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيلِ الله والَّذين آوَوْا ونَصَرُوا أولَئك هُم المؤمنون حقاً، لَهُم مغفرةٌ ورزق كريمٌ﴾

٣ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ خطاباً للمؤمنين فى سياق التعليق على أحداث معركة أحد، قوله فى سورة (آل عمران ٣):

﴿ولا تهِنُوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إنْ كُنتمْ مُومنين (١٣٩) إن يمْسَسكُم قَرْحٌ فقدْ مَسَّ القوم قرحٌ مثلهُ، وتلك الأَيَّامُ نُداولُها بين النَّاس، وليعلمَ الله الَّذين آمنوا ويتَّخِذَ منكم شُهداءَ والله لَا يُحِبُّ الظَّالِمين (١٤٠) وليُمحِّصَ الله الَّذين آمنوا ويمحق الكافرين (١٤١) أمْ حَسبْتُمْ أنْ تدخُلُوا الجَنَّةَ وَلمَّا يَعْلَمِ الله الَّذينَ جَاهدوا

منكم ويعلمَ الصَّابرينَ (١٤٢)﴾

قرح : أى جراح

نداولها بين الناس : أى نجعلها إقبالاً وإدباراً ، ونعمة ومصيبة ، ونصراً وهزيمة ، فحكمة امتحان الناس تقتضى ذلك ، ولولاه لما كان للادارات الحرّة خيار فى الإيمان والكفر ، والطاعة والمعصية ، ولكانت قوانين الجزاء المعجل لو كانت حتمية كقوانين طبائع الأشياء لا يخالفها ولا يعصيها من يتعامل معها ، لكنّ الله عزّ وجلّ قد شاء أن يأخذ الامتحان مداه الصحيح ، فستر جزاءه بالتداول بين الناس ، كما ستر مقاديره بالأسباب ، لتكون الاستقامة ثمرة الإيمان بالغيب ، الذى يدلّ عليه برهان العقل ، لا برهان الحسّ .

وليعلم الله الذين آمنوا : أى فصدقوا جهاداً وصبراً ، وليعلم أيضاً ضعفاء الإيمان والمنافقين . فالبلايا كواشف .

ويتخذ منكم شهداء : أى وليكرم فئة منكم بالشهادة ، ليمنحها عنده كرامة الشهداء ، مادامت أعمارهم قد انتهت ، وآجالهم قد حلّت ، فلأن يموتوا شهداء خير لهم .

وليمحص الله الذين آمنوا : التمحيص التنقية والتخليص من العوالق الضارّة وكل ما لا نفع فيه ، فإزالة وبر الحبل حتى يكون أملس ناعمًا تمحيص ، وإزالة ما فى نفس المؤمن من عوالق تميل به إلى الدنيا وزينتها وغنائمها تمحيصٌ ، وإزالة ما فى القلوب من شبهات تمحيص ، وإزالة آثار الذنوب تمحيص أيضًا .

فالمصائب تمحّص المؤمن ، لكنّها للكافر الذى مرد على الكفر

والعناد ما حقه ، ولذلك قال تعالى ﴿**ويمحق الكافرين**﴾

﴿**أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين**﴾ : أى بل أظننتم أنّ دخول المؤمنين فى أيّة معركة مع الكافرين كافٍ لمنحهم النصر ، وفيهم المؤمن الصادق ، وفيهم ضعيف الإيمان ، وقد يوجد بينهم منافقون ، وفيهم المجاهدون الصّادقون وضعفاء الجهاد ، وفيهم الصابرون والذين لا صبر عندهم ، وهم على درجات متفاضلات ؟؟

أفيصحّ أن تمرّ المعركة دون كشف الدرجات ، وتسجيل أحوال السابقين والمقصّرين ، بظواهر مادّية مشهودة ، وأن يحاسب الجميع حساباً واحداً ؟

إن هذه الأمور المقصودة من الامتحان لا تتحقق إلّا بضواغط الامتحان بالمصائب ، حتى مستوى مصيبة هزيمة المؤمنين فى معاركهم الحزبية مع الكافرين ، ولكنّ العاقبة للمؤمنين حقاً .

فالجهاد فى هذا النصّ يبرز فيه التركيز على الجهاد فى معارك القتال .

٤ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ (أوائل سورة الممتحنة ٦٠) بمناسبة خيانة حاطب بن أبى بلتعة إذْ أرسل كتاباً مع امرأة لقريش يعلمهم فيه بعزم الرسول ﷺ على فتح مكة ، وأعلم الله رسوله بالأمر ، فبعث الرسول من أدرك المرأة ، وأخذ منها الكتاب ، واستدعى الرسول حطاباً وحاكمه ، ثم عفا عنه لسابقته فى الاسلام ، ولأنه كان من أهل بدر . فقال تعالى :

﴿**يا أيُّها الَّذين آمنوا لا تتَّخِذوا عدوِّى وعدوَّكُم أولياءَ ، تُلْقُونَ**

إليهم بالمودَّة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ ، يُخرجُونَ الرَّسُولَ وإيَّاكم أن تؤمنوا بالله ربّكم ، إنْ كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تُسرُّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعلهُ منكم فقد ضلَّ سواءَ السَّبيل (١)﴾

تلقون إليهم بالمودّة : لقد كان ما فعله حاطب توددًا منه لكبراء قريش من أجل أهله ورحمه فى مكة ، الذين ليس لهم فيها عزوة ، وقد أصابه من أجلهم الضعف البشرى ، فسقط فى معصيته هذه ، ولم يكن ذلك حبّاً للكافرين ، ولذلك جاء التعبير **﴿تلقون إليهم بالمودّة﴾**

إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى : أى إن كنتم خرجتم يوم خرجتم مهاجرين فراراً بدينكم من اضطهاد مشركى مكة لكم ، جهاداً فى سبيل الله .

فوصف الله الهجرة من البلد ابتغاء مرضاة الله جهاداً فى سبيله ، فأكد هذا النصّ المدنيّ مضمون جهاد الهجرة فى سبيل الله .

واعتبر هذا النصّ الكتابة للكافرين بما يضرّ مصلحة جماعة المسلمين موالاة لأعداء الله ، إذْ قال : **﴿لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة﴾** وكان أُمر حاطب أن كتب كتاباً وأراد أن يصل إلى المشركين وهم أعداء الله .

فالأسرار بالمودّة من الموالاة ، وتقديم الظواهر التى تشعر بالمودّة من الموالاة .

٥ ــ وأنزل الله عزّ وجلّ قوله فى سورة (النساء ٤) :

﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غيرُ أولى الضَّرَر والمجاهدون

فى سبيلِ الله بأموالهم وأنفسهم . فضَّلَ الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين دَرَجةً وكُلّاً وَعَدَ اللهُ الحُسنى . وَفَضَّلَ الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً (٩٥) درجات منه ومغفرةً ورحمةً وَكَانَ اللهُ غفُوراً رحيماً (٩٦) إنَّ الذين توفَّاهُمُ الملائكةُ ظالِمِى أنْفُسِهِمْ قَالُوا : فيمَ كنتُمْ ؟ قالوا : كُنَّا مُستضعفينَ فى الأرضِ . قَالوا : أَلَم تكُنْ أرضُ الله واسعةً فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً (٩٧) إلَّا المستضعفين مِنَ الرّجالِ والنّساءِ والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلاً (٩٨) فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكانَ الله عفُوّاً غفوراً (٩٩) ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وَسَعةً ، وَمَنْ يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثمَّ يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكَانَ اللهُ غفُوراً رحيماً (١٠٠)﴾ .

غير أولى الضرر : أى غير أولى الأعذار الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً ، ولا يقدرون على النهوض للجهاد .

ويجد فى الأرض مراغَماً كثيراً وسعة : أى مُهاجراً يهاجر إليه[١] ومكاناً يتحوّل إليه ويقيم فيه ، عوضًا عن موطنه الذى منع فيه من أن يكون حرّاً فى دينه ، فمن هاجر فى سبيل الله من وطنه ومسكنه وماله ، وجد فى الأرض مَكاناً مُحَصَّناً محمّياً ، ووجد مُهاجراً .

يقال لغة : راغم الرجل قومه ، إذا نبذهم وهجرهم . وأصل

---

(١) المُهَاجَر : موضع المهاجرة .

المادّة من محاولة كل أن يرغم أنف صاحبه ويُكرهه ، وأعجزهما يفرُّ ويهاجر ، فيرغم أنف ندّه بالهرب .

فالمهاجر حين يُهاجر عن البلد التى فيها من يُريد إرغامه على الكفر ، هو «مُراغم» بصيغة إسم الفاعل وهو يحاول أن يغلب أنداده بالهرب والمهاجرة ، فالمكان الذى يُهاجر إليه ويُراغمُ أنداده فارّاً إليه يُسمىَّ «مُراغَماً» كما يُسمىَّ «مُهاجراً» .

فبدل وطنه يَجدُ مُرَاغماً كثيراً ، وبَدَلَ المالِ يَجدُ سَعَةً فى الرزق .

هذا النص تُشعِرُ الآية الأولى منه كما فهم المفسرون أنّ الجهاد المراد فيها هو الجهاد بالأموال والأنفس ، فى قتال الكفّار والإعداد له ، ويؤيد هذا المعنى الآية السابقة لها من السورة نفسها .

لكن الآيات اللاحقة المبنيّة عليها تفيد أن الهجرة فى سبيل الله مرادةٌ فى عموم الجهاد فى سبيلِ الله فى الآية الأولى .

فالهجرة جهاد ، والبقاء فى بلد الكفر مع محاولات الإرغام عليه قعود ، والمهاجر قد فضّله الله فى الدنيا درجة على القاعد ، أمّا فى الآخرة فأجره عظيم ، وهو يمثّل درجات كثيرات فى جنات النعيم .

وبهذا نلاحظ أنّ الجهاد فى المرحلة المدنية لم يتخلّ عن معانيه المتعدّدة ، ليختصَّ بجهاد القتال .

إنّ القضية قضية حركية عمل بحسب مقتضيات الواقع البشرى ، ومقتضيات الدعوة وبناء الأمّة الاسلامية ، ثم العمل لإقامة دولة الاسلام .

وهذه تختلف باختلاف الواقع من حين لآخر ، وليس لدى

العمل الاسلامى طبعة واحدة يجب التزامها فى كلّ ظرف مهما اختلفت الظروف .

هذا هو منطق الدين ، وهذا هو منطق العقل ، وهذا هو منطق التجربة .

٦ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ سورة (محمد ٤٧) وتسمى سورة (القتال) وتسمى سورة (الذين كفروا) وما جاء فيها من جهاد يبرز فيه الجهاد بالقتال ، وحركية القتال فى هذه السورة ، تدلُّ على وصول المسلمين فى هذه المرحلة إلى مستوى الفريق الأعلى ، الذى ليس من شأنه أن يضعف ، أو يصيبه الوهن فيكون البادىء بالدعوة إلى السّلم ، فيعطى عدوّه فرصة إملاء شروطه المهينة . ولكن عليهم أن يصبروا ويصابروا ، فإذا فعلوا ذلك ، أمدّهم الله بمعونته ، وجعلهم هم الظافرين العالين على عدُوّهم فى آخر الأمر .

والآية التى فيها ذكر الجهاد من هذه السورة ، هى قول الله عزَّ وجلّ :

﴿ولنبلونَّكم حَتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أَخبارَكم (٣١)﴾

أى : وليمتحنن الله المسلمين حتى يكشف المجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيله ، ويكشف الصابرين منهم . ويميّزهم عن غيرهم بفضل الجهاد والصبر ، وبكشف هؤلاء وتمييزهم تنكشف أيضاً أحوال المتخاذلين ، وأحوال البخلاء الذين لا ينفقون فى سبيل الله ، وأحوال المعوّقين والمنافقين .

ونبلو أخباركم : أى ونكشف أخباركم ، وأخبار الناس هى

الأحاديث والأقوال التى تبيّن ما فعلوا وما كسبوا من عمل أو قول ظاهر أو خفى .

وقد تتبَّع الله الجماعة الإسلامية فى عهد التّنزيل . فعلّق على كلّ حادثة لهم وموقعة ذات شأن . فكشف حال المؤمنين الصادقين . وأحوال ضعفاء الإيمان . وأحوال المتخاذلين . وأحوال العصاة . وكشف أحاديث النفوس والنيات . وكشف المنافقين . فمنها ما أنزله فى القرآن صريحاً واضحاً . ومنها ما كنّى عنه كناية . أو ألمح إليه إلماحاً . أو ذكره تعريضاً . وكلّ ذلك من كشف الأخبار .

والله عزّ وجلّ فى منهاج تربيته للأمّة الإسلامية القدوة . لم يجامل منها أحداً . لأنّ فى متابعة كشف الأخبار بعد الأحداث تأصيلاً للحقّ . وإبرازاً وإيضاحاً للعبرة . ورسماً لطريق المستقبل . فما لم تكشف أخبار الأحداث ، وما لم يميَّز الصواب والخطأ فيها . والاستقامة والانحراف . فإنّ الأخطاء والانحرافات ستتكرّر . وتمرّ الأحداث دون أن تُستْفاد منها العظات .

٧ ـ ثم أنزل الله عزّ وجل قوله فى سورة (الحج ٢٢) :

﴿وَجَاهدوا فى الله حقَّ جهاده . هُوَ اجتباكم وما جعل عليكم فى الدّين من حرجٍ . مِلَّة أبيكم إبراهيمَ . هو سمّاكم المسلمين من قبل . وفى هذا . ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزّكاة واعتصموا بالله . هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصيرُ (٧٨)﴾

من الظاهر أنَّ الأمر بالجهاد فى هذه الآية يبرز فيه بوضوح جهاد الدعوة لا جهاد القتال .

فالإجتباء للأمة الاسلامية هو اجتباء لتبليغ رسالة الرسول ﷺ ، كما أنّ الرسول ﷺ قد اجتباه الله لتبليغ رسالته للناس . وإيصالها للناس أجمعين يكون عن طريق من آمن برسالته ، وهم الدُّعاة من الأمّة الإسلامية .

ويوضح هذه الدلالة قولُ الله تعالى فى الآية : ﴿**ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس**﴾ .

فالرسول يشهد على من بلَّغهُ مِن أمّته ما أنزل الله عليه وأمره بتبليغه . وهؤلاء يشهدون على من بلّغوا من الناس . وهكذا تتتابع سلسلة التبليغ ، ومع كلّ تبليغ شهادةٌ يشهد بها منْ بلَّغ يوم الحساب على من تبلّغ من الناس .

فالآية هنا تبيّن الوظيفة الأولى والرئيسة للأمة الإسلامية بين الأمم . وهى تبليغ دين الله والدعوة إليه .

٨ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله فى سورة (الحجرات ٤٩) :

﴿**قالت الأعراب : آمنا . قُلْ : لم تؤمنوا ولكن قولوا : أسْلَمنا ولمّا يدخلِ الإيمانُ فى قلوبكمْ . وإنْ تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إنّ الله غفورٌ رحيم (١٤) إنَّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثمّ لم يرتابوا وجَاهَدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله . أولئك هُمُ الصَّادقُون (١٥)**﴾

فالجهاد الذى يدلّ على الإيمان الصادق ، والذى يظهر أنه هو المراد فى هذا النصّ ، هو الجهاد الشامل لكلّ أنواع الجهاد ، الذى فيه بذل الجهد الشاقّ على الأنفس ، ومنه مجاهدة النفس وأهوائها وشهواتها ، لاقتحام عقباتها ، ومنه جهاد الدعوة إلى الله ، ومنه

جهاد الانفاق فى سبيل الله ، للدعوة والقتال ، ومنه جهاد الإعداد للدفاع والحرب ، ومنه جهاد القتال فى سبيل الله وهو ذروة سنامه ، ومعلوم أنّ قيمة ذروة السنام شرطها سلامة سائر أعضاء الناقة أو الجمل ، وتوافر القوى اللازمة لها .

٩ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله لرسوله فى سورة (التحريم ٦٦) :

﴿يا أيُّها النبيُّ جَاهد الكفَّار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جَهنَّم وبئس المصير (٩)﴾

لقد جمع الله فى هذه الآية الكفّار والمنافقين ، وأمر الرسول ﷺ بأن يجاهدهم جميعاً ، ومعلوم أنّ الرسول لم يؤمر بمجاهدة المنافقين بالقتال . فدلّ هذا على أنّ المجاهدة المرادة هنا هى المجاهدة بوسائل الدعوة المختلفة ، ويظهر أن المرحلة فى هذا الدور قد تجاوزت مراحل القول اللّيِّن ، والملاطفة ، والمخاشنة المتوسطة ، والمجادلة بالحجج والبراهين ، واستخدام شىء من العنف الكلامى ، واقتضى الارتقاء فى الأسلوب إلى الهجوم بالقول الغليظ على جاهلياتهم ، وعلى قبائحهم الخلقية والسلوكيّة ، وعلى انحرافاتهم الفكرية ، وعلى الباطل الذى يكابرون فى الإصرار عليه .

١٠ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ قوله فى سورة (الصف ٦١) :

﴿إنّ الله يحبُّ الَّذين يقاتلون فى سبيلهِ صَفاً كأنهم بنيان مرصوص (٤)﴾ وقال فيها أيضاً بشأن أعداء دين الله :

﴿يُريدون ليطفئوا نُور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون (٨) هُو الَّذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره

على الدّين كُلّه ولو كره المشركون (٩) يا أيُّها الَّذين آمنوا ، هَلْ أدلكم على تجارة تنجيكم من عذابٍ أليمٍ (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار ومساكنَ طيّبةً فى جنَّاتِ عدنٍ ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبونها نصرٌ من الله وفتح قريبٌ وبَشّر المؤمنين (١٣)﴾

فى هذا النصّ يبرز من عناصر الجهاد فى سبيل الله عنصر الجهاد بالقتال ، والإعداد لهُ الذى يستدعى بذل المال اللازم له .

١١ ـ ثم أنزل عزّ وجلَّ قوله فى سورة (المائدة ٥) :

﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون (٣٥) إنَّ الَّذين كفروا لو أنّ لهم ما فى الأرض جميعاً ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تُقُبّلَ منهم ولهم عذابٌ أليم (٣٦) يريدون أن يخرجوا من النَّار وما هم بخارجين منها ولهم عذابٌ مُقيمٌ (٣٧)﴾

لدى التدبر فى هذا النصّ نلاحظ أنّ الجهاد المراد فيه هو جهاد النفس ، بفعل الصالحات ، وترك السيئات ، والاستزادة من الخيرات الباطنة والظاهرة التى ترضى الله تعالى .

والخطوات اللازمة للتزوّد بالزاد العظيم للآخرة تبدأ بالتقوى ، وتكون بالخوف من عقاب الله ونقمته وسخطه ، والتقوى تدفع المتقى لاتخاذ الوسيلة التى تقيه ، والوسيلة الواقية هى العمل الصالح ، ويكون باجتناب ما نهى الله عنه ، وفعل ما أمر الله به . وتلك هى الخطوة الثانية . لكنّ ابتغاء هذه الوسيلة محفوف

بالمكاره ، وهذه المكاره تظهر بكبح النفس عن أهوائها وشهواتها ونزعاتها ونزغاتها ، وبالزامها أن تتحمّل المشقات وتجتاز العقبات اقتحاماً ، وذلك لا يتم إلّا بالمجاهدة ، فالمجاهدة للنفس هى الخطوة لتحقيق الوسيلة المبتغاة ، الكفيلة بتحقيق الوقاية المنشودة .

وهكذا يظهر التسلسل المنطقى بين العناصر :

فالإيمان بالله واليوم الآخر من شأنه تحريك محور الخوف من الله والخوف يولّد الرغبة الصادقة باتقاء المخوف منه .

والرغبة باتقاء المخوف منه تُولّد إرادة اتخاذ الوسيلة الواقية وتحقيق المراد هذا لا يتم إلّا بمجاهدة النفس فى سبيل الله .

فمن فعل ذلك أصاب فلاحاً بتوفيق الله ورحمته .

وهكذا جاء النصّ مرتّباً منطقياً بديعاً : ﴿**يا أيُّها الَّذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون (٣٥)**﴾

١٢ ـ ثم أنزل الله عزّ وجلّ فى سورة (التوبة ٩) عشر آيات فيها ذكر الجهاد ، وهى آيات يبرز فى معظمها أنّ المراد التوجيه للجهاد بالقتال فى سبيل الله والإعداد له ، مع عدم توقف أنواع الجهاد جهنم وبئس المصير (٧٣)﴾

ليستفاد أنّ حملات الجهاد بالقتال التى تعاظمت لا تلغى ولا تُوقف أنواع جهاد الدعوة .

وجاء فيها آيات عامّة تشمل كلّ أنواع جهاد النفس ، وجهاد الأعداء بوسائل الدعوة ، وجهاد الأعداء بوسيلة القتال فى سبيل الله .

وسورة (التوبة) لم ينزل بعدها من السور إلَّا سورة (النصر) فَهُما آخر السور التى نزلت من القرآن .

وهكذا دلّت نصُوص الجهاد فى سبيل الله فى المرحلة المدنية ، وبعد نزول قول الله عزّ وجل : ﴿**كُتب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم**﴾ على أنّها ذاتُ حركيَّةٍ متموجة ، توجّه حيناً للجهاد بالقتال ، وتوجّه حيناً آخر لجهاد الدعوة ، أو لجهاد النفس بالتزام منهج الله فى السلوك الظاهر أو الباطن .

فالتوجيه ذو حركية تلائم الوضع ومقتضياته ، وليس كالقطار الآلى الذى لا يسير إلّا على سكة حديديّة ثابتة .

جهنم وبئس المصير (٧٣)﴾

ليستفاد أنّ حملات الجهاد بالقتال التى تعاظمت لا تلغى ولا تُوقف أنواع جهاد الدعوة .

وجاء فيها آيات عامّة تشمل كلّ أنواع جهاد النفس ، وجهاد الأعداء بوسائل الدعوة ، وجهاد الأعداء بوسيلة القتال فى سبيل الله .

وسورة (التوبة) لم ينزل بعدها من السور إلّا سورة (النصر) فَهُمَا آخر السور التى نزلت من القرآن .

وهكذا دلّت نصُوص الجهاد فى سبيل الله فى المرحلة المدنية ، وبعد نزول قول الله عزّ وجل : **﴿كُتب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم﴾** على أنّها ذاتُ حركيَّةٍ متموجة ، توجّه حيناً للجهاد بالقتال ، وتوجّه حيناً آخر لجهاد الدعوة ، أو لجهاد النفس بالتزام منهج الله فى السلوك الظاهر أو الباطن .

فالتوجيه ذو حركية تلائم الوضع ومقتضياته ، وليس كالقطار الآلى الذى لا يسير إلّا على سكة حديديّة ثابتة .

المقولة الثانية

أهداف الجهاد فى سبيل الله وعناصره وشروطه

(١)

موجباته من الواقع البشرى

فى الواقع البشرى القائم على الصراع المستمرّ الدائم بين الحقّ والباطل ، والخير والشر ، والإيمان والكفر ، والعدل والظلم ، والقائم بين دعاة وحماة الحقّ والخير والإيمان والعدل ، وبين المبطلين والأشرار والكفار والظالمين الطغاة ، تدعو الضرورة بُناةَ الحضارة الإنسانية المثلى ، الملتزمين منهج الله ، والمتحركين بأوامره ، إلى اتّخاذ وسيلة الجهاد فى سبيل الله ، ليتسنَّى لهم إقامة هذه الحضارة على الإيمان بالحق والتزامه ، والإيمان بالخير والتزامه ، وإقامة العدل ، ورفع الظلم وقمعه ، ونشر الإحسان بين الناس ، وردع المبطلين والأشرار والكفّار والظالمين الطغاة .

وليتسنَّى لهم تأمين من يريدون اتّباع دين الله من أن يفتنوا فى دينهم من قبل طُغاة الكفر بالله واليوم الآخر .

وليتسنَّى لهم تأمين الدّعوة إلى دين الله وتبليغُها للناس أجمعين ، ليؤمن حرًا مختارًا من ألقى السّمع وعقل ، وهو حريص

على سعادة نفسه يوم الدين ، ونجاتها من عذاب الله الأليم .

وهم يسعون لتحقيق هذه الغايات على مراحل متدرجة ، وفق السنّة التى علّمهم الله إيّاها فى تدرُّج أحكام التشريع ، وبحسب الاستطاعة التى يملكونها فى كلّ مرحلة من مراحل العمل .

ولولا قاعدة الجهاد فى سبيل الله التى هى من سنن الله فى كونه ومن أحكامه فى شرائعه لعباده المؤمنين ، لما ترك الهدّامون الأنانيون الكفرة بالقيم الحقيقية ، والمنتشرون فى طول الأرض وعرضها ، فرصةً لإقامة حضارة خيّرة فى المجتمع البشرى ، أساسها الحق والخير والجمال الحقيقى ، ومنهجها نشر العلم وإقامة العدل ، وإسعاد الناس . ومقاومة الفحشاء والمنكر والبغى .

لولا قاعدة الجهاد فى سبيل الله لفسدت الأرض ، ولهدّمت بيوت الله التى ترفع لعبادته ، قال الله عزّ وجل فى سورة (البقرة ٢) :

﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسِ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ . وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)﴾

وقال الله تعالى فى سورة (الحج ٢٢) :

﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وصَلَواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا . وَلَيَنْصُرَنّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه إنَّ اللهَ لَقَوِىٌّ عزيز (٤٠) الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ (٤١)﴾

(٢)

غاية الجهاد فى سبيل الله

فالجهاد فى سبيل الله يهدف إلى غاية نبيلة مثالية ، بعيدة عن الأنانيات الشخصية ، والرغبات النفسية ، والمصالح القومية ، باستثناء حالة الدفاع عن الحق المشروع .

إنّ الجهاد فى سبيل الله يهدف إلى إعلاء كلمة الله فى الواقع الإنسانى الذى منح فيه الإنسان حريّة الاختيار لحكمة الإبتلاء فى الحياة الدنيا . مع أنّ كلمة الله هى العليا فى كل شىء أوّلاً وآخرًا ، وهى الكلمة النافذة لا محالة متى اقترنت بقضائه وقدره جلّ وعلا .

وكلمة الله التى يطالب المؤمنون بالجهاد فى سبيل الله لإعلائها هى ما جاء فى شريعته لعباده من أوامر ونواهى ، وتجمعها كلمة : « لا إله إلاّ الله » .

ويُجْمِل مبادئها فى تعايش المجتمع البشرى قول الله عزّ وجل فى سورة (النحل ١٦) :

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون (٩٠)﴾

والمسلمون ينظرون إلى مخالفيهم نظرة شفقة ورحمة ، ما لم يمارس هؤلاء المخالفون عداوتهم للمسلمين بشكل عملى .

المخالفون فى نظر بناة الحضارة الإسلامية جاهلون ومرضى ، والرسالة الخيّرة التى يحملها العلماء الأصحاء إنما هى تعليم الجاهلين ، وتطبيب المرضى ، ومساعدتهم ، والرفق بهم ، والأخذ

بأيديهم فى طريق الصحة والسلامة الفكرية والقلبية والنفسيّة والجسدية .

فإذا لم تُجد الوسائل الهيّنة الليّنة ، البيانية والتربوية ، على اختلاف صورها وأشكالها الترغيبية والترهيبية لإصلاح نفوس أعداء رسالة الحضارة الإسلامية ، وتجميد عداوتهم ، وهدم أحقادهم ، وصرفهم عن مكايدهم للإسلام والمسلمين ، فإنّ الضرورة قد تدعو بناة هذه الحضارة إلى أن يلجأوا إلى وسائل أخرى تترقّى فيها أساليب العنف شيئًا فشيئًا ، مع ضبط النفس ، وعدم اتباع الهوى ، ومع الرغبة الملحّة بالانتصار للحقّ فقط ، دون أن تتدخّل عوامل نفسيّة أخرى .

وقد يغدو فريق من مخالفى رسالة الحضارة الإسلامية المثالية فى الواقع البشرى أعداءً معلنين عداوتهم ، متربّصين بالمسلمين ، أو شاهرى أسلحتهم فى وجوههم ، وفى مواجهة هؤلاء يجد حملة رسالة الحضارة الإسلامية أنفسهم أمام أمر لا مناص منه ولا مفرّ ، يفرض عليهم أن يكونوا مدافعين ، أو مهاجمين بما لديهم من قوىً مادّية ومعنويّة .

وأمام هذا الأمر الذى لا مفرّ منه فى الواقع الإنسانى فإنّ من واجب حملة رسالة الحضارة الإسلامية المثلى أن يتخذوا وسائل الدفاع الكافية ، والمبادهة فى بعض الأحيان قبل المباغتة ، مع التزام شروط رسالتهم الرّبانية التى يضطلعون بمهمّاتها .

وحين يحمل المسلمون الصادقون رسالة الجهاد المقدس ــ كما أمرهم الله لبناء الحضارة الإسلامية المثلى ، فإنهم يعملون على

الدعوة إلى دينهم ، ونشر تعاليمه ومبادئه وقيمه وتعميمها على الناس حبًّا للخير ، وغيرةً على بنى الإنسان ، وطاعة لله عزّ وجل ، ثمّ العمل على إقامة الحقّ والعدل بين الناس ، والحكم بما أنزل الله ، والسعى فى جلب كلّ صنوف الخير للمجتمع البشرى على حبّ ورحمة وإخاء .

وحين يكونون صادقين مع الله فى جهادهم المقدّس ، فإنّهم لا يبتغون منه ثراءً ، أومجرد الرغبة بالانتصار والغلبة للتفاخر ، أو السعى وراء السلطان والعلوّ فى الأرض ، إلاّ أن تكون هذه الأمور وسيلة للغاية الأساسية ، وهى إعلاء كلمة الله فى الأرض .

والغاية المثالية العظيمة التى هى هدف الجهاد فى سبيل الله لا يخدشها ما يلزم عنه من أمور مادية ترافق حركته ، دون أن تكون مقصودة فى الأصل لرسالته .

فقد يفضى الجهاد المقدّس إلى تحقيق مغانم مادّية ، وإلى ضرورة بسط سلطان المجاهدين الفاتحين ، لإقامة الحقّ والعدل والدعوة إلى الخير ، وفعل الخير ، وتأمين حرّية انتشار دين الله ، نظرًا إلى طبيعة الأحوال الإنسانية التى تقتضيها ظروف الجهاد والفتح من جهة ، وظروف عناد أعداء الدين وصراعهم للحقّ وكيدهم له ومكرهم به من الجهة المضادّة ، مع إلحاح الدواعى المثالية التى توجب إضعافهم كبحًا لجماح الشرّ والفتنة ، فالفتنة لصدّ الناس عن الدين الحق ودفعهم إلى موبقات الشرّ والإثم والفساد فى الأرض أشدّ من القتل .

ومع ذلك فإنّ رسالة الجهاد المقدس تظلّ فى جميع الأحوال

رسالةً مثالية ، لا تهدف فى أساسها إلى إرضاء شهوة الحكم عند أمّةٍ ضدّ أخرى ، أوكسب مغانم لها ، أو تسليط شعب على شعب .

ومتى تحوّل الجهاد عن غايته الرّبّانية إلى الغايات الإنسانية الأخرى ، المتصلة بالمطامع المادّية ، أو الغرائز والشهوات والأهواء النفسية ، أمسى شكلاً من أشكال المحاولات العدوانية لسيطرة بعض الناس على بعض ، واستغلالهم واستذلالهم واستعبادهم ونهب ثرواتهم وتسخيرهم بغير حقّ .

ولقد عرف تاريخ البشرية من هذه الأشكال فى بحر الزمن أمواجًا كثيرة مقبلة أو مدبرة ، تبعًا لرياح المطامع والشهوات والأهواء الأنانية ، مع الشعور بالقوة القادرة على التغلّب والاستيلاء .

ومن أقبح صورها القائمة الآن فى أيّامنا هذه صور العدوان المسلّح الظالم الآثم الذى تمارسه الصهيونية العالمية ، وابنتها غير الشرعية دولة إسرائيل ، والذى تمارسهُ دولة الاتحاد السوفيتى فى الشعب الأفغانى المسلم ، ويحمل إثم هذه الممارسات أيضًا كلّ من ناصرها وأيّدها علانيةً أو سرًّا . من الشرق أو من الغرب .

وحينما ينحرف الجهاد عن غايته التى حدّدها الله فى رسالاته ، فإنّ الله عزّ وجلّ يكلُ القائمين به إلى أنفسهم ، وإلى إمكاناتهم الإنسانية البحتة ، ويحجب عنهم العون والمدد والتأييد ، ويقذف فى قلوبهم الرعب ، ويطرحهم مع حشد الأمواج البشرية التى تتلاطم فى حدود إمكاناتها المادية الخالية من القوى المعنوية المؤثرة فى تحقيق

النصر بتوفيق الله ومعونته « وما النصر إلاّ من عند الله » .

وكذلك حينما يستثمر المجاهدون فى سبيل الله الفتح والنصر لغير الغاية التى قام الجهاد المقدّس من أجلها ، فإنّ الله يكلُ المنتصرين إلى أنفسهم ، ويرفع عنهم يد التثبيت والمعونة ، فتموج بهم الأرض من تحتهم ، وترتجّ بهم العروش التى اعتلوها ، وتأتيهم إنذارات الانهيار ، ليصلحوا نيّاتهم وأعمالهم ، فإذا استمرّوا فى الانحراف عن الطريق الذى حدّده الله لهم ، آذنهم الله بنقمته ، وأنزل بهم عذابه ، فدالت دولتهم ، وانهارت قوتهم ، وظفر بهم عدوّهم .

(٣)

خطوات الجهاد فى سبيل الله ووسائله

وبنظرة إجمالية عامّة إلى خُطوات الجهاد فى سبيل الله ووسائله ، ينكشف للباحث المتأمّل أنّها ذات نسق مثالىّ رائع .

فهى أوّلاً تبدأ بمجاهدة النفس ، ثم تثنّى بمجاهدة الآخرين ، ومجاهدة الآخرين تبدأ بوسائل الدعوة المختلفة ، التى تتدرّج من الأخفّ إلى الخفيف ، فإلى الشديد فالأشدّ ، وتراعى فى كلّ ذلك أحوالهم النفسية والاجتماعية ، ومكاناتهم ومنازلهم فى أقوامهم ، وتنتهى هذه الوسائل فى آخر الأمر بالقيام بأعمال القتال ، وفق الدواعى التى تقتضيه ، من دفاع ، أوكسر أسوار طغاة جبابرة تحجب عن الشعوب المقهورة المغلوبة على أمرها نفوذ أنوار الحقّ والهداية إليها .

أمّا جهاد النفس فيكون بمقاومة جهلها وانحرافاتها الفكرية والاعتقادية بالعلم والمعرفة الحقة ، وبمقاومة شهواتها الجامحة وأخلاقها الجانحة بوسائل التربية الإسلامية الفضلى ، والتزام السلوك الأقوم والتدرب عليه ، حتى يكون عادة متمكنة وخلقًا مكتسبًا .

وقد كان الصدر الأول من المسلمين يسمّون جهاد النفس الجهاد الأكبر ، فإذا قفلوا من معركة من معارك القتال مع عدوّهم قالوا : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، أى : إلى مجاهدة نفوسهم فى مجالات شهواتها وأهوائها ومطامعها ، وهو جهاد أطول مدى ، واستمراريته أثر العواطف الثابتة ، لا الانفعال الآنىّ الثائر .

وأمّا جهاد الآخرين فله وسائل شتّى ، يرتقى المجاهد فيها على سلّم متعدّد الدرجات ، وليس كلّ مخالفٍ عدوًّا ما لم يمارس عداوته بشكل عملى .

إنّ المخالفين فى نظر حملة لواء الجهاد فى سبيل الله الصادقين هم جاهلون ومرضى ، والرسالة الخيّرة التى يحملها العلماء الأصحاء المؤمنون الذين يبتغون للناس الخير والسعادة ، إنما هى تعليم الجاهلين ، وتطبيب المرضى ، والرفق بهم ، ومساعدتهم والأخذ بأيديهم فى طرق المعرفة الصحيحة ، والصحة والسلامة .

لذلك تعيّن على هؤلاء المجاهدين أن يبدأوا من أول درجة من درجات سلّم الجهاد ، وهى درجة الدعوة إلى الله على بصيرة ، ضمن الأساليب الحكيمة .

ووسائل الدعوة إلى الله ، تشمل كلّ ما يمكن أن يوصل فكرة

الحقّ وتطبيقاته ، إلى عقول المعارضين ونفوسهم وأعمالهم ، ممّا أذن الله به من وسائل .

كالدعوة الحكيمة باللسان ، تعليمًا ، وإقناعًا ، وجدالاً بالتى هى أحسن . وكالدعوة الحكيمة عن طريق الكتابة والنشر فى نثر الكلام وشعره . وكالدعوة العاملة الصامتة ، عن طريق الأسوة الحسنة ، والمعاملة الفاضلة ، والتخلق بالأخلاق الكريمة . وكالدعوة عن طريق التعليم النافع وما يرافقه من تربية إسلامية عظيمة مؤثرة . وكالدعوة عن طريق بذل عرض الحياة الدنيا من مالٍ أو متاع ، أو بذل الخدمات والمعونات ، لتأليف القلوب على الخير ، وإزالة حواجز الكراهية والنفرة من النفوس ، وجلبها إلى تقبّل الهداية والسير على صراط الله المستقيم .

وبالجملة : فإنّ على المجاهد الداعى إلى الله أن يتدرّج فى وسائل الدعوة ، وأن ينزل الناس منازلهم ، وأن يقتدى بأساليب الدعوة التى قام بها أنبياء الله ورسله .

وحين لا تُجدى الوسائل الهيّنة الليّنة البيانية والتربوية والترغيبّية المختلفة ، فإنّ الضرورة تدعو إلى اللجوء إلى وسائل أخرى تترقى فيها أساليب العنف شيئًا فشيئًا ، مع ضبط النفس وعدم اتباع الهوى ، والرغبة بالانتصار لله فقط ، دون تدخّل عوامل نفسيّة أخرى .

فمن هذه الوسائل استخدام القوة ، ويكون ذلك بتسخير قوى الدولة المعنوية ثمّ المادّية لهداية الناس إلى الخير ، وإلزام المنتسبين إلى الإسلام أو الخاضعين لحكمه بتطبيق أحكامه التشريعية ، كلٌّ بحسبه . ولاستخدام قوى الدولة المعنوية والمادية وجوهٌ تطبيقية

كثيرة :

فمنها إصدار القرارات والتنظيمات الإدارية ، وتوجيه الأوامر المكتوبة ، وترتيب الجزاءات المعنوية والمادّية ، واعتبار الالتزامات الدينية جزءًا من الكفاءات التى تدخل فى شروط التوظيف والترقيات ، واعتبار عدم الالتزام بها إخلالاً بالواجبات المسلكية التى تستدعى الإنذار ثم المعاقبة ، ومنها تنفيذ الأحكام الشرعية على الجناة والمجرمين ، إلى غير ذلك من وسائل كثيرة .

وقد يغدو فريق من مخالفى الإسلام أعداءً متربّصين أو محاربين ، لذلك يجد حملة الجهاد فى سبيل الله أنفسهم أمام أمر لازبٍ لا مفرّ منه ، أمام مواجهة الكيد بالكيد ، والقتال بالقتال ، والحرب بالحرب ،

إنّهم فى الأصل دعاة هداة ، معلّمون ناصحون ، وأطباء مخلصون يعالجون الأمراض البشرية النفسية والفكرية والسلوكية بالدواء الربّانى الذى أنزله الله فى شريعته لعباده ، ولكن ماذا يفعلون إذا فرض عليهم المخالفون الذين رفضوا دعوتهم أن يتخذوهم أعداءً ، إذْ واجهوهم على نُصحهم وتعليمهم وإرادة الخير لهم بالعداء والكيد والقتال والحرب ؟

إنّ حملة لواء الجهاد فى سبيل الله مُكْرَهُون أمام هذا على أن يتخذوا وسائل الدفاع الكافية ، وأن يلجأوا فى بعض الأحيان إلى خطّة المبادهة قبل أن يباغتهم أعداؤهم بما يكرهون ، وهم مع ذلك مسؤولون أمام ربّهم عن التزام شروط رسالتهم الربّانية التى يضطلعون بمهماتها .

ماذا يفعل حملة رسالة الجهاد فى سبيل الله ، الذين يريدون الخير والسعادة والنجاة للنّاس كلّ الناس ، دون إكراهٍ فى الدين ، إذا تعرّضوا لعدوان الآخرين وبغيهم ، ووجدوا أنفسهم وديارهم وأموالهم هدفًا للطامعين الطغاة البغاة ، وأخذ هؤلاء يمكرون بهم ، ويدبّرون لهم المكايد ، وينصبون لهم الشباك والشراك ليصطادوهم ، ويأكلوهم فريسة سهلة ؟

إنّه لا سبيل إلاّ أن يعدّوا العدّة الكبرى التى ترهب أعداءهم وآخرين من دونهم ، ويدفعوا عن أنفسهم إذا تعرّضوا لأية مكيدة حربيّة حارّة أو باردة ، ويأخذوا الأمور بقوابلها قبل أن تستفحل ضدّهم الشرور ، ويحبطوا تدبيرات أعدائهم السرّية بالمبادهة ، ويكسروا الأسوار الشرّيرة ، التى تحجب نور الهداية عن الشعوب المظلومة المقهورة المغلوبة على أمرها .

هذا حقٌّ دعت إليه شرائع الله للناس ، وهو حقٌّ منطقى مقبولٌ فى سنن المجتمع البشرى ، وتقرّه العقول القانونية الحصيفة ولا تستنكر ممارسته .

(٤)

الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله فى التوراة والإنجيل والقرآن

ولقد ظهرت الدعوة إلى الجهاد فى سبيل الله فى الأديان الربّانية الثلاثة ، التى جاء بها موسى وعيسى ومحمّد عليهم الصلاة والسلام ، وكان ظهورها فيها بشكل بارز قوى ، يدلّ على ذلك

قول الله تعالى فى سورة (التوبة ٩) :

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ . وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فى التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ . وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ؟ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)﴾

أمّا موسى عليه السلام فقد طلب من بنى إسرائيل أن يباشروا الجهاد فى سبيل الله ، ويدخلوا الأرض المقدّسة مقاتلين ليحقق الله لهم الفتح والنصر على عدوّهم الوثنى ، فرفضوا طلبه وقالوا له كما جاء فى سورة (المائدة ٥) :

﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَادَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلاَ إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤)﴾

فلما رفضوا قضى الله عليهم أن يتيهوا فى الأرض أربعين سنة ، وتوفى موسى وهارون عليهما السلام ، دون أن يباشر بنو إسرائيل الجهاد فى سبيل الله الذى أمرهم به موسى عليه السلام ، ثمّ قاموا به فى عهد طالوت بشكل إقليميّ محدود ، ونصرهم الله على الوثنيين ، ولمّا فتح الله عليهم وأظفرهم بالملك ، وتمتّعوا بخيراته ، وانتهت موجة الملك النبوى بإنتهاء عهدى داود وسليمان عليهما السلام ، استكان بنو إسرائيل وفسدوا ، وتحوّلت غاية الجهاد الحقّ فى نفوسهم من رسالة ربانيّة ، إلى غايات مادّية وقومية عنصرية بحتة ، وأخلدوا إلى الأرض وضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ودالت دولتهم وسلّط الله عليهم من شتتهم وقتل من قتل منهم واستعبد من استعبد .

وأمّا عيسى عليه السلام فقد دعا قومه إلى الجهاد ، وباشر منه المراحل الأولى ، وهى الدعوة اللسانية ، والجدال بالتى هى أحسن ، وتجميع القاعدة البشرية الأولى لبناء المجتمع الربّانى . ولكن لم تمرّ عليه مدّة من الزمان كافية تمكّنه من أن ينتقل من طور جهاد الدعوة إلى طور جهاد النضال والكفاح المسلّح ، إذْ رفعه الله إليه بعد ثلاث سنوات فقط من بدء دعوته .

لكنّ مفاهيم القتال الدينى ظلّت عالقة فى أذهان المنتسبين إلى المسيح ، مع ما أصاب المسيحية من تحريفات كثيرة مسّت جذورها الاعتقادية وأحكامها التشريعية . واستنادا إلى بقايا هذه المفاهيم التى ضاعت صيغتها الصحيحة ، قام المسيحيون فى تاريخهم الطويل بحروب دينيّة كثيرة خرجوا فيها عن كلّ قواعد الرحمة الإنسانية ، وواجبات الوفاء بالعهود والوعود ، ومارسوا فيها إكراه الناس على التنصّر ، وإلاّ فالقتل على أقبح صورة همجيّة هو مصيرهم ، ونشير هنا إلى ما جرى فى الأندلس ، وإلى الحروب الصليبية وما جرى فيها من ممارسات يخجل العالم المسيحىّ اليوم من أن تنسب إليه أو إلى أجداده .

وأمّا الذين اضطلعوا بأعباء الجهاد فى سبيل الله ، وأعمال الفتح بشكل واسع فى التاريخ وعلى ما يجب ، فقد حدّثنا القرآن منهم عن ذى القرنين ، وحدّثنا منهم عن جهاد الرسول محمد ﷺ ، وعن جهاد الذين معه ممن آمن به وصحبه ، وحدّثنا التاريخ عن جهاد المسلمين وفتوحاتهم المشرّفة بعد الرسول ﷺ .

قال الله تعالى فى شأن ذى القرنين فى سورة (الكهف ١٨) :

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ ؟ قُلْ : سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِى الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا . قُلْنَا : يَاذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ : أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨)﴾

فهذا النصّ القرآنى يدُلُّ على أنّ ذا القرنين قد قاد جيوش الجهاد فى سبيل الله ، وقام بأعمال الفتح الدينى على نطاق واسعٍ جدًّا .

وأخبرنا القرآن أيضًا عن الجهاد فى سبيل الله الذى قام به محمد رسول الله ﷺ والمسلمون معه فى غزواته ، وكان به ظهور الإسلام قويًّا عزيزًا ، ونجد ذلك فى مواطن متعدّدة من القرآن الكريم منها سورة (الأنفال) ، وسورة (آل عمران) وسورة (التوبة) .

وحدّثنا التاريخ باستفاضة واسعة عن الجهاد المقدس الذى قام به المسلمون بعد الرسول محمد ﷺ فى عصورهم الزاهرة الأولى ، وبعض العصور الوسطى ، فكان بها الفتح المبين وتمكين الدين ضدّ أعدائه الكثيرين المتواطئين عليه فى مشارق الأرض ومغاربها .

ونقول اليوم : إنّ المسلمين لن يستطيعوا أن يرفعوا عن صدورهم ضغط أعدائهم ، وأعداء دينهم الكثيرين ، ما لم يراجعوا دينهم ، ويلتزموا بما يوجبه عليهم ، ويجاهدوا فى سبيل الله حقّ جهاده .

فقد ثبت فى الصحيح أنّ ذروة سنام الإسلام الجهاد فى سبيل الله . وثبت فى الصحيح أنّ للمقاتل فى سبيل الله بصدق من الضمان الإلٓهى أن يدخله الله الجنة ، وأن ينال ما لا يوصف من أجر عظيم عنده . أو يعود لأهله نائلاً ما نال من غنيمة وأجر .

(٥)

شروط الجهاد فى سبيل الله بالقتال

إنّ الجهاد فى سبيل الله بالقتال ليس حركة انفعالية غضبيّةً تستدعيها ظروف طارئه ، وليس مظهرًا من مظاهر ردود الأفعال التى يستدرج العدو بها المسلمين إلى فخ مخفى يكون قد نصبه لهم ، وليس تعبيرًا عن حقد دفين ورَغبة بالانتقام وإراقة الدماء ، ولكنه واجب يقوم به المسلمون وهو كُرْهٌ لهم ، وهم لا يتمنّون لقاء العدو ، بيد أنهم إذا دعاهم الواجب فلاقوا عدوّهم ثبتوا متوكّلين على الله ذاكرين له ، وكانوا ذوى بأس شديد .

وحين لا يجدون أنفسهم قادرين على مواجهة عدوهم للنقص الكبير فى عددهم أو عدّتهم فإنهم لا يتورّطون ولا يورّطون جماهير المسلمين بالدخول فى معركة لا يترجّح فيها احتمال النصر على احتمال الهزيمة بحسب الظواهر السببية التى جعلها الله من سننه فى كونه ، مضافًا إليها عطاء القوى المعنوية التى يختصّ الله بها المؤمنين دون غيرهم .

وقد وضع الله نسبتين عليا ودنيا يترجّح معهما النصر للمؤمنين ،

متى توافرت الشروط اللازمة للقتال جهادًا فى سبيل الله .

. أمّا النسبة العليا فهى أن يكون المؤمنون الصادقون الصابرون بمقدار عُشْر أعدائهم ، فهم مؤهلون لتحقيق النصر على عدوّهم الذى تزيد أعداده على أعدادهم بنسبة عشرة أضعاف . ولكن شروط هذه النسبة العليا قلّما تتحقّق فى مجتمع إسلامى ، إنها تتطلّب أن تكون الجماعة المقاتلة كأمثال النخبة الممتازة من أصحاب رسول الله ﷺ .

وأمّا النسبة الدنيا التى يقبل فيها أضعف الإيمان فى مجموعة مقاتلة ، فهى أن يكون المؤمنون المقاتلون بمقدار نصف أعدائهم فى مجموع القوة .

وكلّما ارتقت نسبة الإيمان والصدق والإخلاص فى المقاتلين زادت النسبة المرشحة لتحقيق النصر ، فينتصر المؤمنون المقاتلون على ثلاثة أضعافهم ، فأربعة أضعافهم فأكثر من ذلك إلى عشرة أضعافهم ، وقد ينتصرون وعدوّهم أكثر من ذلك بفضل من الله ، وفى أحوال نادرة ، ولكن ليس من حقّ القيادة أن تدفع الجيش الإسلامى المقاتل إلى ورطة لا يترجّح معها احتمال النصر ، أو يكون احتمال الهزيمة هو الاحتمال الأغلب فى مجرى السنن الربّانية .

وقد دل على النسبتين العليا والدنيا وأشار إلى ما بينهما قول الله تعالى فى سورة (الأنفال ٨) :

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ . إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ . وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ (٦٥) اْلآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ

وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا . فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِئَتَيْنِ . وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)﴾

فنى أضعف الإيمان يجب على المؤمنين أن لا يترددوا فى التصدّى لعدوّهم إذا كان عدده ضعف عددهم وكانت قواه كذلك ؛ لأنهم مرشحون فى هذه الحالة لاغتنام النصر ، ولكن عليهم أن يلتزموا بالواجبات والشروط التى أمرهم الله بها قبل القتال وأثناء القتال .

فمن الشروط الواجب توافرها قبل القتال ما يلى :

الشرط الأول : إعداد المستطاع من القوة ، والاجتهاد فى إعدادها حتى تربو على قوة العدو ، من مالٍ ، وسلاحٍ ، ورجالٍ ، وخبرات ، وعلومٍ ومعارف ، وغير ذلك ، والهدف من إعداد المستطاع من القوةً إرهاب عدوّ الله وعدوّ المؤمنين ، وآخرين من دونهم يخفون عداوتهم والله يعلمهم ، وفى التكليف المتضمن هذا الواجب قال الله تعالى فى سورة (الأنفال ٨) :

﴿وأَعِدُّوا لَهُم ما استطعتم من قوةٍ ومن رباط الخيلِ ترهبون به عدوَّ الله وعدوّكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم . اللهُ يعلمهم . وما تنفقوا من شيءٍ فى سبيل الله يُوَفَّ إليْكُمْ وأَنتمْ لَا تُظْلمون (٦٠)﴾

الشرط الثانى : إتخاذ مختلف الوسائل السلميّة التى يمكن أن تحقّق الأهداف دون قتالٍ ولا حرب . قال الله تعالى فى سورة (الأنفال ٨) :

﴿وإنْ جنحوا للسَّلْم فاجنح لها وتوكَّل عَلَى الله . إنَّهُ هُو

السَّميع العليم (٦١)﴾

وقد أمَرَ الله بقبول سياسة السَّلْم مع احتمال أن تكون هذه السياسة من الأعداء خطّة من خطط المخادعة التى يمارسونها ، وفى ذلك يقول الله تعالى عقب الآية السابقة :

﴿وإن يُريدوا أن يخدعوك فإنَّ حَسْبَك اللهُ . هو الَّذى أيَّدَك بنصره وبالمؤمنين (٦٢)﴾

الشرط الثالث : أن يكون القتال لإعلاء كلمة الله ، فقد ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال :

«من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله»

فكل قتال لا تكون غايته إعلاء كلمة الله فإنه ليس قتالاً فى سبيل الله .

وهذا الشرط يشمل تحديد الباعث على الخروج إلى القتال وإعلانِ الحرب ، والمطلَب الذى يُراد تحقيقه فى الدنيا . والغاية القصوى المرجوّة عند الله .

فالباعث هو الإيمان بالله والتصديق برسله ، أمّا من خرج للقتال فى سبيل ضلالات شيطانية إلحادية ، أو فى سبيل وثنيات مادّية ، أو أوهام قومية أو عنصرية أو طبقية أو نحو ذلك ، فإنه يعرّض نفسه إلى تهلكتين : تهلكة الموت أو القرح فى الدنيا ، وتهلكة العذاب الأليم فى الآخرة .

والمطلب المرادُ تحقيقه فى الدنيا هو نشر دين الله ، وإعلاء كلمته .

والغاية القصوى المرجوّة عند الله هى نيل رضوانه ، وبلوغ

جنته ، والظفر بما أعدّ الله من أجر عظيم للمجاهدين المقاتلين فى سبيله . وأمّا الظفر فى الدنيا فهو أمرٌ إنْ قضاه الله فتلك حُسنى عاجلة أكرم الله بها المؤمنين المجاهدين فى سبيله ، وإنْ لم يقضه الله لحكمة هو يعلمها فقد حقّق المؤمنون غايتهم القصوى ، وهى نيل رضوان الله وجنته ، والأجر العظيم الذى أعدّه للمقاتلين فى سبيله ، ولذلك خاطب الله المؤمنين بقوله فى سورة (النساء ٤) :

﴿ولا تهنوا فى ابتغاء القوم . إنْ تكونوا تألمونَ فإنَّهم يألمونَ كَمَا تألمونَ وترجون من الله ما لا يرجون ، وكانَ اللهُ عليماً حكيماً (١٠٤)﴾

ومن الشروط الواجب توافرها أثناء القتال ما يلى :

الشرط الأول : وحدة الغاية ، وذلك بأن تكون غاية المقاتلين واحدة ، وهى إبتغاء مرضاة الله ، بالعمل لنشر دينه ، وإعلاء كلمته ، والحكم بما أنزل لعباده ، وقد دلّ على هذا الشرط قول الله تعالى للمؤمنين فى سورة (التوبة ٩) :

﴿انْفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكمْ وأنفسكم فى سبيل الله . ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون (٤١)﴾

وقول الله تعالى للمؤمنين فى سورة (الأنفال ٨) :

﴿وقاتلوهم حتَّى لا تكون فتنةٌ ويكون الدّين كُلُّهُ لله فإنِ انتهوا فإنّ الله بِمَا يعملون بصيرٌ (٣٩)﴾

الشرط الثانى : وحدة صفّ المقاتلين وتماسك جماعتهم ، وذلك لأنّ تفرّق صفوف المقاتلين دون خطّة موحّدة جامعة مبدّد للقوى ، موهن للعزائم ، ممكّن للعدوّ من أن يظفر بكل قسم على حِدة ، وقد

دلّ على هذا الشرط قول الله تعالى فى سورة (الصف ٦١) :

﴿إنَّ الله يحبُّ الَّذين يقاتلون فى سبيله صَفّاً كأنهم بنيانٌ مَرْصُوصٌ (٤)﴾ .

ووحدة الصف لها صور شتى تختلف باختلاف أساليب الحرب ووسائل القتال ، وهى تخضع لما تقرره غرفة العمليات الحربية المشرفة على توجيه الجيش المقاتل .

الشرط الثالث : الاعتماد على الله فى تحقيق النصر ، وعدم الاغترار بالنفس ، وهذا الشرط مهمٌ جدّاً لإحراز النصر ، لأنّ الاعتماد على الله مع ملاحظة أوامره بوجوب بذل قصارى الجهد لنيل تأييده ونصره ، من شأنه أن يضاعف القوة ، ويزيد من إمكانات القتال لدى حملة رسالة الجهاد فى سبيل الله .

أمّا الاغترار بالنفس فإنّه يفضى إلى الاستهانة بقوة العدوّ ومع الاستهانة يحصل التهاون والتباطؤ والتواكل ، وهذه من أبرز عوامل الخذلان ومسبّباته ، وقد دلّ على هذا الشرط من القرآن قول الله تعالى فى سورة (الأنفال ٨) :

﴿وَمَا النّصرُ إلَّا من عند اللهِ ، إنَّ الله عزيز حكيم (١٠)﴾

﴿لقد نصركم الله فى مواطن كثيرةٍ ، ويوم حنينٍ إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وليتم مدبرين (٢٥)﴾ .

الشرط الرابع : شدّة البأس فى القتال ، وذلك لأنّ شدّة البأس تجعل قلوب الأعداء فريسة الخوف والهلع ، ومتى وجد الخوف سبيلهُ إلى القلوب سالكاً انهارت قوى الهجوم ، ثمّ تنهار من ورائها قوى الدّفاع والمقاومة والصمود ، ويفضّل المقاتل حينئذٍ

الفرار أو الاستسلام ، وقد دلّ على هذا الشرط قول الله تعالى فى سورة (الأنفال ٨) :

﴿فإمَّا تثقفنَّهم فى الحربِ فَشَرِّدْ بهم من خلفهم لعلّهم يذّكّرونَ (٥٧)﴾

إنّ قوله تعالى : **﴿فشرِّد بهم من خلفهم﴾** يدل على الإلزام بإيقاع البأس الشديد فى العدو المقاتل حتى تنخلع قلوب الذين من خلفه ذعراً ، فيشردوا ويفرّوا من وجوه المقاتلين من المسلمين ، طلباً للسلامة ، وإيثاراً للعافية ، ومخافة أن يقع بهم مثل هذا البلاء العظيم . ويفهم من هذا التوجيه لسياسة السّلْم الإرهابى ، أى : القائم على خوف العدو من مواجهة المسلمين ، فيؤثرون السلامة ، فيتحقق السلم .

الشرط الخامس : الثبات والمصابرة وعدم تولية الأدبار ، مع الاعتصام بالإكثار من ذكر الله تعالى ، وذلك لأن من طبيعة الثبات والمصابرة أن يفلا حدّ العدوّ المقاتل ، ويسقياه كؤوس اليأس من الظفر ، وبذلك تنهار قوته فيفرّ أو يستسلم .

ويساعد على الثبات والمصابرة الاشتغال بذكر الله ، والأمل بمدده المادّى والمعنوى . ويدلّ على هذا الشرط قول الله تعالى فى سورة (الأنفال ٨) :

﴿يا أيُّها الَّذين آمنوا إذا لقيتم فِئةً فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون (٤٥)﴾

وقول الله تعالى فى سورة (الأنفال ٨) أيضاً :

﴿يا أيُّها الذين آمنوا إذا لقيتم الَّذين كفروا زحفاً فلا تولوهم

الأدبار (١٥) ومن يولّهم يومئذٍ دُبُرَه إلّا متحرّفاً لقتالٍ أو متحيّزاً إلى فئةٍ فقد باء بغضبٍ من الله ومأواه جهنم وبئس المصير (١٦)﴾

الشرط السادس : طاعة القيادة ، وعدم التنازع فى الأمر ، وذلك لأنّ فقدَ الطاعة يجعل القيادة غير قادرة على استعمال القوى فى مواجهة العدوّ ، فتجمد القوى أو تتصارع فيما بينها ، أو تستعمل فى غير صالح المعركة ، وذلك من أسباب الفشل الكبرى كما أنّ التنازع فى الأمر باختلاف وجهات النظر فى القتال يؤدى إلى هذه النتائج نفسها التى تسبب الفشل ، وليس من شأن حملة رسالة الجهاد فى سبيل الله العصيان والتنازع ، وقد دلَّ على هذا الشرط قول الله تعالى خطاباً للمؤمنين فى سورة (الأنفال ٨) :

﴿وأَطيعُوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إنَّ الله مع الصابرين (٤٦)﴾

وقول الله تعالى فى سورة (آل عمران ٣) :

﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسُّونهم بإذنه ، حتَّى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعدما أراكم ما تحبّون ، منكم من يريد الدُّنيا ، ومنكم من يريد الآخرة ، ثمَّ صَرَفَكُمْ عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم . والله ذو فضلٍ على المؤمنين (١٥٢)﴾

وبتحقيق هذه الشروط يستطيع حملة رسالة الجهاد فى سبيل الله أن يظفروا دائماً بالنصر على أعداء الإسلام ، لأنّ الله قد وعدهم بذلك ، والله لا يخلف الميعاد .

وحين لا يتحقق لهم النصر فلابدّ أن يكونوا قد أخلّوا ببعض الشروط ، ولم يلتزموا ما فرض الله عليهم ، وعليهم فى مثل هذه

الحالة أن يراجعوا حساب أنفسهم وأعمالهم ، ومدى تطبيقهم لمنهج الله ، فحكمة الله غير متهمة ولا يمنح الله تأييده ونصره على خلاف السنن العامّة التى تخضع لنظام الأسباب والمسبّبات الكونية إلَّا تحقيقاً لوعده ، ومعونة للذين يستحقون هذه المعونة بما فى قلوبهم من إيمان وصدق وغيرة على دين الله ورغبة بإعلاء كلمته ، وبما فى أعمالهم من طاعة واستقامة على صراط الله المستقيم .

ومقالة الذين يقولون : «نحن أفضل بإسلامنا من أعدائنا رغم معاصينا ومخالفاتنا الكثيرة ، فلم لا ينصرنا الله عليهم ؟!» مقالة ساقطة غير صحيحة ، لأنّ عطاء النصر بمخالفة نظام الأسباب والمسببات الكونية المعتادة لم يتكفّل الله به إلَّا للذين يحققون فى أنفسهم الشروط التى أُلزموا بها لاستحقاق تنفيذ الوعد بالنصر .

فمن أخلّ بها وكله الله لنفسه ولأسبابه الكونية ، حتى يتعظ ويراجع حسابه ، ويعود إلى الاستقامة على منهج الله .

إن النصر على خلاف السنن المعتادة لا تراعى فيه الأفضليات النسبيّة ، بل تُراعى فيه الاستقامة المستطاعة على منهج الله ، وبذلك قضت حكمة الله .

إنّ المسلمين ورسول الله قائد معركتهم مع عدوّهم لمّا أخلّوا ببعض الشروط ، حوّل الله رياح النصر عنهم فى معركة أحد ، وفى معركة حنين ، وأبان لهم فى القرآن سبب ذلك .

ومن سنن الله أنّ المسلمين إذا أسرفوا فى معاصيهم لربّهم سلّط الله عليهم بعض أعدائهم من الكفرة ، لتأديبهم وتربيتهم ، وليتعظوا ويراجعوا دينهم ، فإذا تابوا إلى بارئهم واستقاموا وغيّروا ما

بأنفسهم ، تاب الله عليهم ، وعادت عوائد مدده وتأييده ونصره إليهم ، وليس هذا التسليط تفضيلاً من الله لهؤلاء الذين سلّطهم على المسلمين ، إنّما هو بمثابة تسليط الحشرات على بنى آدم ، مع أنّ الله قد كرّم بنى آدم وجعلهم فى أحسن تقويم ، ولكنّ طبيعة العقاب والتأديب قد تستخدم فيها وسائل ليس لها قيمة فى ذاتها ، إنّ العصا التى تضرب بها ولدك لتأديبه ليست أكرم أو أفضل عندك من ولدك .

فما على المسلمين أمام الأحداث الجاثمة على صدورهم ، والنكبات المتوالية عليهم ، إلّا أن يفهموا حكمة الله فيما تجرى به مقاديره ويتعظوا بها .

(٦)

الروح المعنوية لدى المجاهدين فى سبيل الله

لدى المقارنة بين الجيوش المقاتلة فى التاريخ الإنسانى ، لابدّ أن يلاحظ الناظرون إلى قيم الروح المعنوية فيها أنّ جيوش حملة رسالة الجهاد فى سبيل الله بصدق تتمتع بأعلى نسبة منها .

إنّ المجاهدين فى سبيل الله ، حينما تلجئهم الضرورة إلى أن يقفوا موقف المقاتلين فى مواجهة أعدائهم وأعداء دينهم ، فإنّ الروح المعنوية سترتفع فى قلوبهم ونفوسهم ارتفاعاً عالياً جدّاً .

وذلك لأنهم يتلمسون فى أنفسهم أنّ الباعث لهم على القتال أنبل غاية تقصد ، ويجدون أنفسهم مندفعين إلى التقيّد بشروط

القتال التى حدّدها الله لهم ، وأمرهم بالتزامها ، ويشعرون بأنّ شوقاً يقذف بهم إلى الظفر بما وعدهم اللّه من النصر المؤزر أو الشهادة ودخول الجنة .

إنّه ما من جيش استجمع كلّ ذلك إلّا نزع الله الجبن من قلوب أفراده ، فأصبحوا لا يخشون الموت ، ولا يهابون خوض غمار الحرب مهما حمى وطيسها ، وبهذه القلوب والنفوس المشحونة بالشوق إلى لقاء الله والجنة فإنّهم يقبلون على القتال وهم شديدو البأس ثابتو الأقدام .

وعندئذٍ يجد هذا الجيش معونة الله المعنوية والمادّية مصاحبة له مهما كرّ أو فرّ فى مساجلات القتال .

ومن المستبعد جداً أن يُصاب جيشٌ من هذا النوع فى وقت من أوقاته بالضعف أو التخاذل أو الوهن ، مادام مستجمعاً للشروط التى بيّنها الله للقتال فى سبيله .

كيف يصابُ مثل هذا الجيش المؤمن بالضعف أو التخاذل والوهن ، وهو على يقين بأنّ وعد الله للصادقين معه ، والمخلصين له ، لابدّ محقق حتماً ، فالله لا يخلف الميعاد ؟

إن مثل هذا الجيش لابد أن يكون شديد الثقة بتحقّق الغاية التى ينشدها . كيف لا يكون كذلك وهو فيما يقوم به إنما يقاتل وهو مؤمن عميق الإيمان بأنّه يقاتل بإذن الله وأمره ، مؤيّداً بعون الله وقهره ، موعوداً بأجر الله ونصره .

ومن أجل ذلك ترتفع قوة المقاتلين فى سبيل الله بنسبة ما فى قلوبهم من إيمان وصبر ، وصدق مع الله ، حتى يكون الواحد كفؤاً

للعشرة من العدوّ فى الحدّ الأعلى ، وكفؤاً لاثنين من العدوّ فى الحدّ الأدنى .

هكذا تكون قوة المؤمنين الصابرين ، بخلاف الذين يخرجون بطرًا ورئاء الناس ، ويقاتلون حمية وعصبية ، أو يقاتلون للفخر والعلوّ فى الأرض بغير الحق ، أو يقاتلون ليثنى عليهم بين الناس بالشجاعة ، أو بغية الوصول إلى مال ، أو الحصول على شهوات ولذّات ، أو الوصول إلى مجدٍ دنيوى لا يهدف إلى غاية من غايات الجهاد فى سبيل الله بصدق ، أو يقاتلون فى سبيل فردٍ أو جماعة من الناس ، أو غير ذلك من أمور لا تعادل بحالٍ من الأحوال بذل الروح فى سبيلها .

إنّ الذين يخرجون إلى القتال لمثل هذه الغايات إنْ يخرجوا وهم غافلون عما سيعرّضون أنفسهم إليه ، أو طاعة لقادتهم الذين إن عصوهم قتلوهم ، ما أسرع ما يدبّ الذعر إلى قلوبهم ، وما أسرع ما يصيبهم الخوف الشديد والهلع . ثمّ إنهم فى أغلب الأحوال متى وجدوا لأنفسهم منفذاً للفرار من المعركة أخذوا سبيلهم إليه ، إلّا أن يغلب على ظنّهم أنهم بقوّتهم المادّية منتصرون ، أو أنّ عدوهم ضعيف أو جبان ، أو أن يقوم فى أنفسهم أنهم قد أمسوا ملزمين بالقتال ، وإلّا قتلوا وأبيدوا .

ومن أجل ذلك نلاحظ أنّ الجيوش التى لا تحمل رسالة الجهاد فى سبيل الله بصدق ، تعانى أكبر ما تعانى ممّا يُسمّى عند العسكريين بفقد الروح المعنوية ، وتحاول قيادتها رفع هذه القوة بوسائل مختلفة دعائية ونفسية ومادّية ، ومن الوسائل المادّية ما يتمّ

به سلب الشعور العاقل، عند الجندى المقاتل ، عن طريق المسكرات . ولكنّ كلّ وسائلهم لا تحقق بعض النتائج التى يحققها الإيمان .

أما الجيوش التى تحمل رسالة الجهاد فى سبيل الله بصدق فإنها قلّما تصاب بفقد الروح المعنوية العالية ، ولو لم يتحقّق لها الظفر المادّى على العدوّ ، لأنّ كلّ مقاتل فيها يعتقد أنه قد ظفر بما يقاتل من أجله ، وهو بلوغ رضوان الله ، واستحقاق الأجر عنده ، وأنه يقاتل لغاية هو يرجوها ويطلبها ، ولم يفرض عليه القتال لمصلحة غيره من الناس . أمّا النصر المادّى فيعتقد أنه بيد الله يؤتيه من يشاء لحكمة يعلمها ، وحكمة الله غير متهمة فى قلوب المؤمنين .

(٧)

الجهاد فى سبيل الله فى تاريخ بناة الحضارة الإسلامية

حدّثنا التاريخ عن الجهاد الصادق فى سبيل الله ، بمختلف وسائله التى تبدأ بجهاد النفس ، فجهاد الدعوة إلى الله ، وتصل فى مداها الأقصى إلى الجهاد بالقتال لإعلاء كلمة الله ، وإقامة الحق والعدل فى الأرض ، وتثبيت قواعد الحكم الإسلامى . بدءاً بجهاد الرسول محمد ﷺ والذين آمنوا معه ، وقد توّج الله هذا الجهاد بظهور الإسلام واستعلائه فى شبه الجزيرة العربية .

ثم تابع مسيرة الجهاد فى سبيل الله المؤمنون الصادقون ، بعد وفاة الرسول ﷺ ، فأثمر جهادهم فتحاً مبيناً لعشّاق الخير ،

وناشدى الحضارة المجيدة ، وأثمر نصراً عزيزاً للبؤساء والمظلومين ومهضومى الحقوق .

وكان من عطاء هذا الجهاد الصادق المخلص ، أنّه منح الأكفاء للمساهمة فى بناء الحضارة المثلى أرضاً مستقرة آمنة . وزمناً مباركاً فيه . فأخذوا يبذلون ما لديهم من طاقة وجهد فى بناء الصرح الخالد . الذى دفعتهم إلى بنائه أسس الاسلام الراسخة . التى تدعو إلى كلّ ما هو حقّ وخير وابتكار وإبداع جميل لا شرّ فيه . والتى لا تفرق فى الأخوة الإيمانية الاسلامية بين الأقوام والشعوب واللغات والألوان . ولا تفرق بين الطبقات . وتتيح فرص العمل والسبق والارتقاء ، لكل المسلمين المؤمنين على سواء .

وامتد الاسلام باستمرار حركة هذا الجهاد المقدس . وامتدت معه أصوله الحضارية شرقاً وغرباً . وحقّق المسلمون به معجزة الفتح التاريخية . التى كادت تضمّ بين جناحيها معمور الأرض فى مشارقها ومغاربها .

وكان ذلك فى أقصر حقبة عرفها تاريخ الفتوحات فى الأرض . كما حقق المسلمون من كلّ الأجناس والأعراق انطلاقة حضارية فكرية وخلقية وسلوكية . علمية وتطبيقية عظيمة أفادت منها الحضارة الغربية الحديثة كثيراً .

واستمرّ أمر المسلمين كذلك . حتى تسرّب إلى نفوسهم مرض الانحراف عن الهدف المثالىّ الحق ، الذى حدّدته لهم أسس الاسلام الاعتقادية والتشريعية . فدخل إلى قلوبهم داء الوهن . والطمع بالدنيا . وحبُّ الشهوات . والتثاقل عن الجهاد فى سبيل الله .

والإخلاد إلى الأرض . فوكلهم الله إلى نفوسهم . وألقى الخلاف بينهم . وضرب بين قلوبهم . وسلّط عليهم عدوّهم .

ولكن حركة المدّ والجزر فى البحر الزاخر من المسلمين المنتشرين فى الأرض . كانت توقظهم بين حين وآخر إلى ما يجب عليهم نحو رسالتهم الرّبانية الدينية الحضارية العظمى . من الجهاد فى سبيل الله جهاداً حقاً . مستوفياً كامل شروطه وأركانه . فكانت سوانح اليقظة هذه كافية لصدّ أعدائهم عنهم . وردّ كيدهم فى نحورهم . وإبقاء هيكل الدولة الاسلامية العامّ مهيباً مرهوب الجانب .

وبين ضعف هذا الكيان وعوامل اليقظة ومظاهرها . لاحظ أعداء الاسلام عقيدته القوية الراسخة . التى تجعل جيوش حملة رسالة الجهاد فى سبيل الله كأنها الجبال الراسيات قوّةً وثباتاً . وامتحنوها عمليّاً خلال قرون صارعوا فيها المسلمين بكل وسيلة من وسائل القتال المكثف العنيف . وكانت النتيجة أن مستهم صدمة عنيفة من الذعر والدهش والحيرة . ثمّ لم يجدوا سبيلاً إلى تفتيت هذه القوة المعنوية الهائلة . إلّا أن يأتوا إلى جيوش حملة رسالة الجهاد الاسلامى الصادق . فيفرّغوها من سرّ قوتها الحقيقية . ويحرّفوا معانى الجهاد فى سبيل الله داخل نفوسها . وأفكارها . وقلوبها . وفى ممارساتها العملية التى تنتظم حركة حياتها .

المقولة الثالثة

محاولات التحريف فى مفاهيم الجهاد فى سبيل الله

(١)

مقدمـــة :

إتخذ أعداء الاسلام والمسلمين محاولات ذكية جدّاً ، مكروا بها مكراً كُبّاراً ، لإلغاء ركن الجهاد فى سبيل الله من واقع المسلمين ، عن طريق التحريف فى مفاهيمه وتفريغه من مضامينه ، ونزع سرّ قوته الحقيقية ، ووضع قوى خُلّبيّة باردة مكانها ، يسهل عليهم أن يوجّهوا ضدّها ضرباتهم القاصمة .

لقد وجّه الأعداء جهوداً جبّارة لإزالة قوة الإيمان بالله من نفوس المسلمين ، ولتهديم البواعث الاسلامية الحقيقية على الجهاد فى سبيل الله . وأتبعوا ذلك بإلغاء شروط القتال فى سبيل الله . ووضعوا مكان كلّ ذلك قوى صورية تعطى أصواتاً عظيمة مدوّية ، ولكنّها لا تحدث إلّا أثرًا يسيراً ، وقد لا تحدث أىّ أثر إلا أثراً ضدّ حاملها . ووضعوا مكان الشروط الرّبانية شروطاً أخرى ، فجعلوا فى محلّ الاعتماد على الله الغرور بالنفس ، والاعتماد على إمدادات الدول الطامعة ذات المصالح الشخصية ، وأحلّوا محلّ ذكر الله عبارات طاغوتية إلحادية أو قومية أو عنصرية أو طبقية إلى غير ذلك

من دوائر أنانية صغرى ، وأحلّوا أيضاً محلّ ذكر الله أغانى مشحونة بتبجحات حقيرة . وبرّدوا حرارة الاندفاع الحقيقى إلى الجهاد فى سبيل الله بصدق . وفرّقوا صفوف المسلمين ، وأفسدوا بينهم وبين قادتهم ، ففقدت الجيوش المسلمة بذلك عناصر قوتها الحقيقية . فكيف يتم لها الظفر بعد ذلك على أعدائها ؟!

فمن محاولات التحريف فى مفاهيم الجهاد فى سبيل الله التى كادنا بها أعداء الاسلام كيداً كبيراً ما يلى :

(٢)

استغلال ردود الأفعال الناتجة عن توجيه الاتهام

حين لم تظفر القوى المعادية للإسلام برفع ركن الجهاد فى سبيل الله من عقول المسلمين وقلوبهم ونفوسهم ، اتخذوا لهدم هذا الركن سلاح مهاجمة الاسلام عن طريق المستشرقين ، وذلك باتهامه بأنه لم ينتشر بالدعوة والتبشير والاقناع بأنه حقّ ، وإنما انتشر بالقتال والسيف وإكراه الناس عليه .

واستغلالاً لردود الأفعال الناتجة عن توجيه هذا الاتهام ، استطاع المستشرقون والمبشرون الذين اطلقوا فريته ، أن يستدرجوا بعض المسلمين الغيورين على إسلامهم ، وأن يسخّروا بعض عملائهم من أبناء المسلمين ، للدفاع عن فكرة الجهاد فى سبيل الله ، بمفاهيم مبتدعة تحصر الجهاد فى سبيل الله ببعض مجالاته ، وببعض دوائره ، وتزعم أن الاسلام لا يسمح بتجاوز هذه

المجالات ، وهذه الدوائر .

فمن ذلك ادّعاؤهم بأنّ الحروب الإسلامية لم تكن إلّا حروباً دفاعية فقط ، وربّما تقاصرت هذه المجالات فى دعوات بعض المذعورين من اتهامات الأعداء ، حتى أمست واقفة عند حدود جهاد النفس ، أو جهاد الدعوة البيانية .

وبذلك ينهدم شطر عظيم من ركن الجهاد فى سبيل الله ، الذى دلّت عليه النصوص الإسلامية ، ومفاهيم المسلمين الأولين ، ودلّت عليه وقائع الفتوحات الإسلامية العظمى التى طبقت هذه المفاهيم .

واستفادت القوى المعادية للإسلام فوائد عظيمة من هدم هذا الشطر من ركن الجهاد فى سبيل الله .

وتذرّع أصحاب الأفكار المبتدعة الجديدة بالحقيقة الإسلامية التى أعلنها الله بقوله فى سورة (البقرة ٢) :

﴿لا إكراه فى الدّين قد تبين الرُّشدُ من الغيّ ، فمن يكفر بالطاغُوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، والله سميعٌ عليمٌ (٢٥٦)﴾

وبهذا الهدم الجزئى الذى تضمنه هذا الفهم الدخيل المبتدع تعطّل من مجالات الجهاد فى سبيل الله الشطر الذى تكون الغاية منه نشر الدين ، وإبلاغه للعالمين ، وكسر الأسوار التى تحجب الحقّ عن أن يصل إلى أسماع الغافلين المتعطشين إلى المعرفة من الشعوب المغلوبة على أمرها ، الراغبة بالخلاص من ظلمات الجهل ، وسلطان الحكومات الآثمة الظالمة ، التى تحجب عنها النور ، وتفرض عليها

مطالب أهوائها ، وتمنعها من تنسُّم أية حقيقة تخالف ما تمليها عليها بالقوة .

أمّا الإكراه فى الدين فلا مجال له بحال من الأحوال ، لأنّ أوّل أسس الدين عقيدة فى القلوب ، ومحال أن تكره القلوب إكراهاً مادّيّاً على أن تعتقد عقيدة ما ، وإعلان القرآن عن هذا فيه من الروعة ما يسكت كلّ لسان .

إنّ جانب الإيمان الذى هو الأساس فى الدين مثله كمثل عواطف الحبّ والكراهية ، إنها جميعاً أمور لا تقبل الإكراه المادّى ، نعم قد تجلبها وسائل أخرى ، لكنّ الإكراه ليس وسيلة إلى جلبها بحال من الأحوال ، بل الإكراه وسيلة منفرة .

ولكنّ هذا لا يستلزم حصر الجهاد فى سبيل الله ببعض جوانبه كالدفاع فقط ، أو كجهاد الدعوة ، أو جهاد النفس ، أو نحو ذلك .

إنّ الضرورة فى المجتمع البشرى قد تدعو إلى القتال ، انتصاراً لحقّ المظلومين بأن يتنسموا حرّية التعرف على ما يحييهم ، ويرفع عنهم حيف الطغاة ، ويريهم نور الحق والهداية ، ليدينوا بالدين الذى يرتاحون إليه وتؤمن به قلوبهم .

حينما يكون شعب من الشعوب أو طائفة من الناس مغلوبين على أمرهم ، محكومين بسلطة قاهرة ، تحجب عنهم كلّ حقيقة ، وتحرمهم من ممارسة حقّ حرّيتهم فيما يعتقدون وفيما يعملون ولا تسمح لدعاة الحقّ والهداية أن يدخلوا إليهم ، ويبصّروهم بالحقّ الذى آمنوا به وهم يحملون رسالة الدعوة إليه ، فإنّ الواجب

الإنسانى العام الذى تفرضه الأخوة الإنسانية ، يوجب على حملة رسالة الحقّ والهداية والخير ، أن ينتصروا للمظلومين ، ويقاتلوا حتى تكسر أسوار السجون التى أقامها الطغاة البغاة عليهم ، وحتى تحطّم أسلحة الإرهاب والتعذيب التى يعذّبون بها ، وحتى تمزق الحجب التى تحجب عنهم نور الشمس ، وتحبس عنهم نسمات الحياة السعيدة ، وحتى تطلقهم من إسارهم فيكونوا أحراراً فى اختيار الدّين الذى يدينون به ، ونظام الحياة الذى يسيرون عليه .

بعد هذا البيان لا يجد العقلاء المنصفون حاجة للاعتذار عن ركن الجهاد فى سبيل الله ، بقتال الطغاة البغاة الظلمة المستبدين الذين يكرهون الناس على ما لا يريدون .

وكل محاولة للقصّ من أطراف هذا الركن العظيم ، وحصره ببعض مفاهيمه تحريف فى دين الله .

إنّ قضية الجهاد فى سبيل الله بالقتال لتأمين رسالة الدعوة وحمايتها وإقامة العدل قضية حقٍ ربّانى ، وإنّ غايته من أشرف الغايات وأنبلها . ولولا أن ألجأت إليه الضرورة فى المجتمع الإنسانى الظالم الآثم ، الذى يتحكّم فيه الطغاة البغاة الجبابرة أصحاب الأهواء ، الذين يجعلون أنفسهم أرباباً من دون الله ، لما كان له وجود فى شرائع الله . ذلك لأنّ أساس هذه الشرائع الرّبانية كلّها قائم على القاعدة المعلنة فى قول لله تعالى فى سورة (الكهف ١٨) :

﴿وقُل : الحقُّ من ربّكم فمن شاءَ فليُؤمن ومن شاءَ فليكفر . إنَّا اعتدنا لظالمين ناراً أحاط بهم سُرادِقها و إن يستغيثوا يغاثا بماءٍ كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً (٢٩)﴾

فتخيير المشيئة قائم ، ولكنّه تخيير مستتبعٌ بالمسؤولية والجزاء بعقابٍ شديد يوم الدين لمن كفر وجحد .

ومن عجيب المفارقات أن كثيراً من الّذين يشنّعون على الإسلام فى شأن هذا الواجب العظيم ، يمارسون أقبح صور الإكراه فى الدين ، وأقبح صور التعصب ضدّ المسلمين ، ويستخدمون ضدّهم كلّ وسائل العنف ، لإلزامهم بأن يتركوا دينهم وعقائدهم ومفاهيمهم ، ويحرمونهم من كثير من حقوقهم الشخصية والاجتماعية والاقتصادية ، ويوجّهون ضدّهم حروب إبادة جماعيّة ، ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ، مع أن المسلمين لم يكن منهم عبر تاريخهم الطويل ، الذى كانوا فيه هم أصحاب القوة والدولة ، إلّا الرحمة ، والعدل ، والتسامح ، وحسن التعايش ، فى تعاملهم مع مخالفيهم فى الدين الذين كانوا تحت سلطانهم أو كانوا شركاءهم فى الإدارة والحكم . وكثيراً ما كان الحيف والكيد يأتيهم من هؤلاء المخالفين .

(٣)

خطة تفريغ الجهاد فى سبيل الله من مضامينه باصطناع البدائل

ومما لجأ إليه أعداء الإسلام. والمسلمين فى محاربة ركن الجهاد فى سبيل الله ، تفريغ هذا الركن من مضامينه ومن معانيه السامية ، ومن أسسه وبواعثه التى تمدّ المسلمين بطاقة كبرى من الإقدام

والصمود والصبر والمصابرة .

وذلك بصرف المسلمين عن الغاية التى يقاتلون فى سبيلها ، إلى غايات مختلفات أخرى ، بعيدة كلّ البعد عن معانى الإسلام ومفاهيمه السامية ، وليس فى مضمون هذه الغايات المحدثة ما يدفع المسلم حقاً إلى التضحية الصادقة ، والفداء المتفانى ، والشجاعة المتفوّقة ، والثبات لدى ملاقات الأعداء فى قتال جادّ .

ومن هذه الغايات المحدثة التى أحلّوها محلّ الغايات الاسلامية ، أو زحفت بنفسها بعد توارى الغايات الاسلامية ، وغيابها عن تصوّرات جماهير المتنسبين إلى الإسلام ، عباراتُ الوطنية ، وعبارات القومية المضيقة أو الموسعة . وعبارات شعارات أخرى خُلّبية زائفة ، كعبارات البسالة ، والشجاعة ، والحميّة والأخلاق الثوريّة ، والعمل الخلّاق ، والمصلحة الحقيقية للشعب المتمثل بالطبقة الكادحة وقياداتها الاشتراكية التقدمية الرائدة ، وخلق الإنسان المناضل لبناء المجتمع الثورى الرائد ، وما أشبه ذلك من رسوم ألفاظ منتفخة فارغة المضمون ، وجاهليات هشّة ضعيفة الأثر ، لا تستطيع أن تقف على أقدامها إن كان لها أقدام ، تجاه غايات ثابتة مركزة ذات قوة .

لقد رأينا لليهود على ما هم عليه من انحلال خلقى وتشتت فى الأرض ، قضيّة فى هذا العصر ، لها غاية مركّزة ، تدعمها قوى معنوية ذات جذور تاريخية دينية ، وبها استطاعوا أن يجمعوا طاقات أشتاتهم ، ويستغلوا مواقع وجودهم فى كل دول العالم ، وتأثيراتهم المادية والمعنوية الفكرية والعاطفية ، لإقامة دولتهم العنصرية التى

تلبس أردية الحاخامات الدينية ، وتذرف دموع صلوات الندم والفرحة على حائط المبكى ، وتقاتل بكل عدوان وبغى كلّ من يقف فى طريق مطامعها ، وتصارع الرأى العالمىّ بعنادٍ وإصرار ومكر وشراء للضمائر .

أما المسلمون عرباً وغير عرب فقد أريد لهم أن تكون قضاياهم مشتتة مضطربة مائعة ، تموج بها شعارات محدثة ، وتقذف بها ذات اليمين مرّة وذات الشمال أخرى ، وليس لها أصالة ولا جذور فى نفوس الشعوب المسلمة ، ولا تدعمها قوىً معنوية من دينهم وعقيدتهم وتاريخهم . ومن أجل ذلك نكبوا بما نكبوا به من قبل أعدائهم .

فهل إلى رجعة من سبيل ، نعود فيها إلى غاياتنا ومفاهيمنا الإسلامية ، التى تحمل لنا فى ثناياها كل الحلول لمشكلات شعوبنا الإسلامية ، وتدفع بنا إلى صفّ القيادة والريادة فى العالم ، وتخلّص المقهورين والمظلومين من براثن الطغاة الجبّارين فى الأرض ، وتخلّص التائهين من أجيالنا من عذاب الغربة والحيرة والضيعة ، ومن أودية الهلاك .

(٤)

حيلة الربط الدورى بين ركن الجهاد فى سبيل الله وبين إقامة الحكم الإسلامى

ومن الخطط التى اتخذها الأعداء ، واستدرج إليها بعض أبناء

المسلمين ، وكثيرٌ منهم قبلها وروّج لها عن حسن نيّة ، حيلة الربط الدورى بين الجهاد فى سبيل الله بالقتال وبين إقامة الحكم الإسلامى الصحيح .

والنتيجة التى تحصل من هذا الربط ، أن لا يباشر المسلمون الجهاد فى سبيل الله بالقتال مهما دعت الدواعى إليه ، حتى يقيموا الحكم الإسلامى ، وبما أن الحكم الإسلامى المنفّذ لكل أحكام الله وشرائعه لعباده ، لا يستطيع أن يقوم فى الأحوال الراهنة فى كثير من بلدان العالم الإسلامى ، إلّا عن طريق الجهاد فى سبيل الله حتى حدوده القصوى . إذن فلا بدّ أن يتساقط طرفا الدور ، فلا يقوم الحكم الإسلامى المطلوب ، ولا يباشر المسلمون الجهاد فى سبيل الله كما ينبغى ، ويدور المسلمون بهذه الحيلة الفكرية فى حلقة مفرغة ، ليس لها طرف يمسكون به حتى تبدأ منه خطة عملهم .

وقامت نظريات جديدة تبنّاها بعض المسلمين ، وهذه النظريات تنادى بأن الجهاد فى سبيل الله حقٌّ ، وركن من أركان الإسلام لنشره وصيانته ، ولكن لا يصح مباشرة هذا الركن فيما وراء جهاد النفس وجهاد الدعوة السلميّة الهادئة قبل توافر شروطه الأساسية والمنطق عند هذا الحدّ سليم لا اعتراض عليه .

ولكن عند الحديث عن الشروط يعملون على انتحال شروط بعيدة المنال فى ظروف المسلمين الحالية ، ثمّ يعملون بكلّ وسيلة على جعل هذه الشروط مستحيلة الوقوع أو كالمستحيلة .

كما يعملون على ربط هذه الفئات التى تنادى بهذه النظريات بهم ربطاً محكماً ، يجعل كلّ أنواع النشاط التى تقوم به تحت اسم

الإسلام كمن يحرث فى البحر ، تُمتَصّ بالجهد طاقاته ، ولا تؤثر فى الماء محاريثه ، وينتهى الأمر إلى تعطيل ركن الجهاد فى سبيل الله بالقتال نهائيّاً ، وإبقائه كمادّة معطلة عن التطبيق فى دستور نظرى .

على أنّنا نُؤكّد أنه لا يصح مباشرة الجهاد بالقتال قبل توافر شروطه ، من تحديد الغاية الكبرى منه ، وإعداد العدة المطلوبة للمواجهة ، والقيام بواجب الجهاد بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وانتظار الفرص الملائم .

ولكن على المسلمين جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها ، أن يخطّطوا ، ويساهموا فى الإعداد التامّ لردّ صور العدوان ، التى يبيتها ضدهم أعداؤهم من الشرق ومن الغرب وممّا بينهما ، ليوقعوا فى شركهم كلّ بلد من بلدان العالم الإسلامى ، وعلى المسلمين أن لا يتوانوا فى القيام بهذا الواجب لحظة واحدةً ، فهم اليوم فى سباق القوة ، والإعداد الحقيقى لأسلحة الردع والصمود والجهاد فى سبيل الله بصدق ، إنَّما ينظرون إلى أواخر الصفوف المتقدمة فى العالم المعاصر بالمناظير بعيدة المدى حتى يروها وهم خلفها ، إنّ الأمر لا يحتمل التريّث والصبر والأناة ، ولكنّ اللحوق بالركب ، ثمّ السبق ، من الأمور الممكنة التى تتوافر لديهم أسبابها الماديّة ، فما عليهم إلّا أن يفتحوا كنوز أسبابهم المعنوية ، ويغترفوا منها ، ويبدأوا المسيرة الجادة متوكلين على الله ، ومن يتوكّل على الله فهو حسبه .

(٥)

خطّة اصطناع المنظمات العميلة الأجيرة

استمرت جيوش الاحتلال الاستعمارى فى البلدان الإسلامية ، تنام على أشواك القلق والاضطراب والفزع ، من مباغتة المقاومة التى يقوم بها المجاهدون المسلمون ضدّ الغزاة .

وبحثوا عن سرّ هذه المقاومة العنيدة المستمرة ، والفداء الذى لم ينقطع ، فوجدوا أنّ من أركان الإسلام لنشره وصيانته وحماية المسلمين وبلادهم من أىّ تسلّط غير إسلامى ، ركن الجهاد فى سبيل الله ، الذى يغذّيه فى قلب المسلم إيمانه الراسخ بما أعدّ الله للمجاهدين فى سبيله من أجر عظيم عنده ، فهو إن لم يظفر فى الدنيا بالنصر ، ظفر فى الآخرة برضوان الله والجنة .

ولذلك وجّه الاستعماريون جهوداً عظيمة فى خطط متعددة الشعب ، لغزو هذا الركن العملى الخطير من أركان الإسلام الاجتماعية ، ولإضعاف أثره فى صفوف المسلمين ، وهدم بواعثه فى قلوبهم .

وفكّروا وقدّروا وخططوا ، ثم استخدموا لهدم هذا الركن عدّة أسلحة . وعملوا على إلغائه ورفعه كلّياً ، وجرّبوا أن ينشروا بين المسلمين عقائد جديدة تفسر النصوص الإسلامية المصادر للتشريع بحسب أهوائهم ، وتنادى بالأخوة الإنسانية ، دون تفريق بين الأديان القائمة ، والمذاهب الفكرية المصطنعة ، وتفسّر الإسلام بأنّه واحد من هذه الأديان المنتشرة فى الأرض ، يدعو إلى المحبّة ،

وإلى التآخى العامّ بين البشر ، مهما كانت مذاهبهم واتجاهاتهم وأعمالهم ومعتقداتهم ، وما هو بدين قتال وسفك دماء ، وأمّا القتال الذى حصل فى صدر الإسلام فقد كان عمليّة مرحلية فقط ، انتهى دورها بانتشار الإسلام فى العالم ، وأضافوا إلى ذلك أخلاطاً اعتقادية تنسف الإسلام من أساسه .

واستأجروا للقيام بتنفيذ هذا المخطط أجراء ضمن صفوف المسلمين ، بألوان شتى وصور مختلفة ، وظهر بعض هؤلاء الأجراء بأثواب قادة سياسيين ، وظهر بعضهم بأثواب مصلحين دينيين وابتدع بعضهم ديناً جديداً دعا إليه ، وجمع فريقاً من المرتزقة عليه .

فظهرت البهائية ثم امتدت ، وظهرت القاديانية فى الهند ثم امتدت ، وكلّ منهما قد ضمّن أخلاطه الاعتقادية الملفقة إلغاء ركن الجهاد فى سبيل الله ، ودعا إلى التعايش بمحبّة وإخاء وتعاون مع السلطات الاستعمارية الكافرة ، التى تمتصّ خيرات البلاد ، وتنشر مبادئها باعتبارها أمّة غالبة مستعمرة .

أمّا البهائية : فهى نحلة جديدة ظهرت فى جسم الأمة الإسلامية بتدبير من اليهود وبعض الدول الاستعمارية ، وبامدادات من صانعى المكيدة لقادة هذه النحلة بالأموال ، وتيسير المصالح ، ومختلف أنواع وصور الدعم والتأييد .

وهذه النحلة الأجيرة لأعداء الإسلام والمسلمين والتى يوجّه قيادتها منافقون منهم قد قامت بتلفيق دين جديد بعقيدته وشريعته ، تحت قناع الإصلاح الدينى والاجتماعى المزيف ، باسم التآخى العام

بين الناس على اختلاف أديانهم وقومياتهم ومذاهبهم ولهذه النحلة (البهائية) صلة فى مفاهيمها بما يلى :

(أ) بالإباحية من جهة .

(ب) وبطرح الفوارق الدينية من جهة ثانية .

(جـ) وبالغاء مبدأ الجهاد فى سبيل الله من جهة ثالثة .

وأمّا القاديانية : فهى نحلة جديدة أيضاً ، عملت بما تستطيع من خدمة مأجورة من قبل المستعمرين ، لهدم العقائد والشرائع الإسلامية ، التى يخدم هدمها مصالح المستعمرين فى بلاد المسلمين ، وكان لتأسيس هذه النحلة بين المسلمين تحت ستار دينىّ هدفان رئيسيان :

الهدف الأول : تفريق وحدة المسلمين ، وتوهين قوتهم ، وهدم مبادئهم وعقائدهم .

الهدف الثانى : تمكين الدولة المستعمرة من بسط نفوذها على البلدان الاسلامية التى اغتصبتها ، لا سيما الهند التى نشأت هذه الطائفة فيها . ومن أسباب هذا التمكين إلغاء ركن الجهاد فى سبيل الله .

ومما جاء فى رسائل «ميرزا غلام أحمد القاديانى» زعيم هذه الطائفة العميلة قوله :

«لقد قضيت معظم عمرى فى تأييد الحكومة الإنكليزيّة ونصرتها ، وقد ألّفت فى منع الجهاد ووجوب طاعة أولى الأمر الانكليز ، ما لو جمع بعضه إلى بعض لملأ خمسين خزانة» .

وكذلك يعملون لإلغاء هذا الركن الإسلامى العظيم ، الذى هو

حصن الأمة الاسلامية المكين .

(٦)

خطّة التوريط والإحباط

وربما دسّ دهاة المكر وأخباث شياطين الناس بين صفوف المسلمين المتحمّسين لإسلامهم ، من ينفخ فى نار حماستهم ويؤججها ، ويتظاهر منافقاً بالغيرة الشديدة على الإسلام والمسلمين ، ويثير غضبهم ، ويزيّن لهم ضرورة التحرّك السريع للقتال فى سبيل الله ، من أجل رفع طغيان قائم ، وبغى جاثم ، أو لإقامة حكم الإسلام فى الأرض ، ويزعم لهم أنّ أمر القتال قد صار واجباً شرعياً وأمراً حتمياً ، ولو لم يكن لدى الثلّة المؤمنة المخلصة إلّا القوة القليلة اليسيرة ، التى لا تكفى فى ميزان القوى السببية للتغلّب على خمسة فى المئة من قوى الكفر الطاغية التى يريدون قتالها لإسقاطها .

ويندفع المتحمسون للإسلام الغيورون عليه برعونة وقصر نظر ، وغفلة عمّا يراد لهم ، وهم يجهلون فقه الجهاد فى سبيل الله بالقتال ، ثم يتخذون من بينهم رؤساء لا علم لهم بالدين ، فيستفتونهم فيفتونهم بغير علم ، ويتّهمون علماء الدين بالتخاذل وقصور الهمة ، أو بممالأة أعداء دين الله ومصانعتهم ، ويصدّرون أحكامهم على علماء الدين بصيغة تعميميّة ظالمة ، لمجرّد مخالفتهم لهم فى الرأى .

ولا أبرّىء فئة العلماء بالدين ، فقد يكون فيهم أو فيمن يُشار إليه أنه منهم ، متخاذلون أو قاصرو الهمة أو ممالئون لذوى السلطان المحاربين للدين ، فشأنهم كشأن كلّ فئة من الناس فيهم الصالح وغير الصالح ، ولكنّ النقد والتلويم والتأثيم أمور لا يجوز أن تتجاوز حدودها ، فيؤخذ المحسن بجريرة المسىء ، ويُدان الصالح بجريرة الطالح .

والأصل حمل المسلم على براءة الذّمة وحُسن النيّة وإن خالف فى الرأى ، ما لم تثبت إدانته ، أو يظهر فى أعماله أمارات قويّة تشير إليه بالإدانة ، وتلصق به التهمة ، وهذا فى غير القضايا الشخصية التى هى من المعاصى بين العبد وربّه ، ما لم يكن مجاهراً فيها .

ويوجّه هؤلاء المتحمّسون المخلصون إن شاء الله ــ نقدهم الشديد للذين يُشارُ إليهم أنّهم من علماء الدين ، ويحمّلونهم إثم القعُود عن الجهاد فى سبيل الله بالقتال ، ويجعلون من أنفسهم مفتين وقضاة بغير إذن شرعى ، فيفتون ضدّهم ، ثمّ يحكمون عليهم بأحكام قضائية مستندة إلى فتاواهم ، ثمَّ يصدِّقون هذه الأحكام من عند أنفسهم ، ثم يُنفِّذون هذه الأحكام ، ويقولون : هذه أحكام الله .

والله عزّ وجلّ لم يأذن لهم بشىء من ذلك .

ويريد هؤلاء المتحمّسون الغيورون على الإسلام والمسلمين ، والمخلصون ــ إن شاء الله ــ ممّن يُقال : إنّه عالم بالدّين ، أن يكون جنديّاً فى القتال ، وقائداً عسكرياً ، ومخطّطاً حربياً ، وعبقريّاً سياسياً ، وماهراً فى أعمال التنظيم والإدارة ، ومُفكّراً بارعاً ،

ومجتهداً فى استنباط أحكام الدين من مصادر التشريع ، وأن يكون كُلَّ من تحتاج إليه الأمّة الإسلامية من كفاءات لاستعادة مجدها العظيم . هذا غلط فاحش ، وفساد فى الرأى .

ولا بدّ أن نلاحظ أيضاً أنّ معظم أذكياء المسلمين قد انصرفوا فى العصور المتأخرة عن علوم الدين ، واتّجهوا لعلوم الدنيا ، وكثير منهم سار فى ركاب أعداء الله ، وبقى للعلوم الإسلامية قلة قليلة جدّاً ، لا يجوز عقلاً ولا واقعاً تكليفها فوق قدراتها ، ولا دفعها للقيام بمهمّات لا تحسها ، ولئن قامت بها أساءت وأضَرَّت ، فالأمة إنّما تتكامل بتوزيع الاختصاصات على وفق القدرات والكفايات :

ومن الغباء أن نطالب كلّ إنسان بأن يحسن كلَّ الاختصاصات ، مهما كان عبقرياً وذا مواهب رفيعة ، فكيف بأناس عاديّين ، تتفاوت نسب كفاياتهم وقدراتهم ، شأنهم فى ذلك كشأن سائر الفئات من الناس ، مع ملاحظة أنّ الأجيال الذكية موجَّهة بعوامل كثيرة للزهد فى الدراسات الدينية ، وحمل رسالة العلوم الإسلامية ، والدعوة إلى سبيل الله عزّ وجلَّ .

وفى دوّامة هذه المفاهيم المختلطة ، التى التبس فيها الحقّ بالباطل ، والمقترنة بالحماسة الصادقة ، والانفعال الثائر ، والأعصاب المتوترة ، والغضب المهتاج ، والطموح الأرعن ، يتابع المحرّكون فى الخفاء شياطين التوريط والإحباط أعمالهم فى مدِّ اللَّهب بالوقود . وقد لا يكون المحرّك الشيطان إلّا شخصاً واحداً ستر نفسه بأقنعة لا يعرفها ولا يكشفها إلّا شيطان مثله .

وهدف الخطّة الخبيثة تحريك الثّلة المتحمسة الغيورة الضعيفة ، لممارسة أعمال القتال برعونة ضدّ قوةٍ كبيرة لا قِبَلَ لهم بها ، إلّا بمعجزات خوارق . وتزيّن الخطّة لهؤلاء المتحمسين الثائرين أنّهم مطالبون شرعاً بالقتال ، ليسوا مسؤولين عن النظر إلى ميزان القوى السببية ، ولا عن النتائج ، ويندفع المغرورون فيخلطون فى عرض الأدلّة لما زُيّن لهم بين الحقّ والباطل ، وتلتبس عليهم الأمور ، ويحسبون أنّهم يحسنون صنعاً .

والغاية الأخيرة التى يهدف إليها شياطين المكر ، وتوريطُ الثلّة المؤمنة المتحمّسة بتحرّكات قتالية تنتهى بالهزائم والنكبات للمسلمين ، واتخاذُها قُوّةَ جذبٍ تَشدُّ إلى فلكها أشباهها ونظائرها من الأغرار الطموحين ، وقذفهم على دفعات فى أتون الورطات التى تنتهى بالهزائم والنكبات ، ومع كلّ نكبة احباط جزئى للهدف الكامن فى ضمير الأمّة ووجدانها العميق .

وبتكرار التوريط وحلول النكبات ، وإصابة النفوس بالإحباطات الجزئية ، تتراكم الإحباطات ، حتى تصل النفوس إلى مرحلة اليأس الكامل ، أو الشكّ فى دين الله ، ما لم يقم أهل العقل والإيمان باستدراك الأمر ، وكشف الأسباب الحقيقية للهزائم ، وإبراز مواطن الخطأ والصواب .

وحين تَصل جماهير المسلمين ، فى شعورها العامّ أو الغالب ، إلى مرحلة اليأس من تحقيق الهدف الكامن فى ضميرها ، يرى شياطين المكر بالإسلام والمسلمين ، أنّهم قد وصلوا فعلاً إلى عزل ركن الجهاد فى سبيل الله عن أفكار المسلمين ونفوسهم إلى أجل

بعيد ، مع فتنة كثير من أبناء المسلمين عن دينهم ، إذْ كانوا يرون أنَّ الله سينصرهم بالمعجزات والخوارق ، ويظنون أنّ ذلك وعدٌ قطعه الله على نفسه فى كلّ الأحوال . ولا يرون لهذا الوعد من الشروط إلّا شرط نهوض الثَّلَّة المؤمنة لنصرة دين الله بالقتال .

وهذا كما عرفنا من بحوث هذه الفصول جهل بالدين ، وسوء فهم لنصوصه .

ومن المؤسف جدّاً أنّ هذا الجهل المؤيَّد بفتاوى فئات تصدّت للقيام بحركةٍ إسلامية قتالية ، قد أخذ طابع قضية إسلامية مقرّرة ، فحين لا يتحقق فى نظر الاتباع ما كان قد قيل لهم فآمنوا به ، يعودون على الدين كلِّه فيكذّبون به ، ويغفلون عن تصحيح أخطائهم وأخطاء قادتهم .

وقد يصعب على القادة والأتباع اتّهام أنفسهم بأنهم كانوا مسيئين فى فهم الدين ، أو الاعتراف بذلك . وإعلانهم الرجوع إلى الحقّ .

وممّا لا شكّ فيه أن مصيبة الأمّة فى فتنتها عن دينها أكبر من كلّ مصائب الهزائم والنّكبات .

ويكفّر كلّ ذلك التوبة ، مع الاعتراف بالخطأ ، وإعلان الرجوع إلى الصواب . ومن كان جاهلاً فعليه أن يرجع إلى أهل الذكر ، وأهل الاستنباط .

الفصل الثالث

وجوه النصر

وفيه مقولتان :

المقولة الأولى : بيان وجوه النصر.

المقولة الثانية : أدلّة وجوه النصر.

المقولة الأولى

بيان وجوه النصر

يخطىء كثيراً من يتصوّر أو يظنُّ أنَّ النصر ليس له إلّا صورة الانتصار العسكرى فى معارك حربية . أو الانتصار السياسى فى معارك انتخابية . أو نحو ذلك .

بل النصر له وجوه كثيرة أحدها الانتصار فى معارك قتالية . وباستطاعتنا أن نذكر من وجوه النصر الرّبانى لأوليائه على أعدائه الوجوه التالية :

(أ) النصر بغلبة الحجّة والبرهان . كانتصار إبراهيم عليه السلام بمحجته على قومه .

(ب) النصر بظهور الحق على الباطل . واعتراف أنصار الباطل فى نفوسهم بأنهم مبطلون . وبأن خصومهم الدعاة هم المحقّون . فالهزيمة للمبطلين فى هذا الوجه هزيمة نفسية . وكثيراً ما تكون مقدّمة لهزيمة ظاهرة مشهودة .

(جـ) النصر بنجاة المؤمنين من كيد أعدائهم . وسلامتهم من شرورهم . كانتصار إبراهيم عليه السلام بنجاته من النار التى أجّجها قومه لتحريقه انتصاراً لأوثانهم . لقد كانت نجاته نصراً عظيماً من الله له . وهزيمة مخزية لقومه .

(د) النصر باحباط الله خطط الأعداء ، وعدم تمكينهم من التغلّب على قوة المسلمين .

(هـ) النصر بإدالة دولة الكفر ولو بعد حين ، عن طريق الانهيار الذاتى ، أو بتسليط دول كافرة أخرى ، ثم ظهور دولة الإسلام ظهوراً غير مصحوب بأعمال قتالية ، أو ضجيج إعلامى .

(و) النصر بالفتح المبين ، وتمليك المؤمنين أرض الكافرين وأموالهم ، وتقتيل رجال الكفر وقادته وصناديده ، وهذا الوجه من وجوه النصر هو الوجه الذى تحبّه جماهير المؤمنين ، وتظنه هو النصر الوحيد .

(ز) النصر بإنزال الله عقوبته فى أعداء دعاة الحقّ وأنصاره ، إهلاكاً وتدميراً بالمهلكات الكونية ، التى لا يكون للناس كسب فيها ، كانتصار الرسل على أقوامهم الذين أهلكهم الله بعذاب من عنده .

(ح) النصر بانتصار فكرة الداعى إلى الله فى قوم عدوّه الجبّار ، ولو كان ذلك الداعى قد سقط شهيداً على يد ذلك الجبّار ، كالنصر الذى ظفر به غلام أصحاب الأخدود ، مع سقوطه هو شهيداً صريعاً ، على يد عدوّه الملك الذى رماه بسهم من كنانة الغلام نفسه ، وقال كما ذكر له الغلام : باسم الله ربّ الغلام ، فرماه ، فأصابه ، فوضع الغلام يده على صدغه فمات ، فتحوّلت الجماهير معلنة إيمانها بدعوة الغلام وكافرة بالملك الجبار .

(ط) وقد يأتى النصر الفكرىّ بتحوّل الغالب الفاتح إلى دين المغلوب المهزوم المنكسر فى معارك القتال ، كما حصل فى بعض

أدوار التاريخ .

إلى غير ذلك من وجوه ، فعلى المؤمنين أن لا ييأسوا من النصر ، وأن يعلموا أنّ انتصار الفكرة الإيمانية الإسلامية هو المقصود الرئيسى من دعوات الرسل كلّها . وأنّ قبول الناس لمبادىء الإسلام منوط بإراداتهم واختيارهم الحرّ ، وأن الله إذا علم أنّ المسلمين فى السّمة الغالبة عليهم ـ قد صاروا أهلاً لإقامة دولة مؤمنة مسلمة ، نصرهم على عدوّهم النصر الذى يحبونه ، فمكن لهم فى الأرض . وعندئذٍ يتحقق وعد الله الذى وعد به المؤمنين ، بقوله فى سورة (النور ٢٤) :

﴿وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصَّالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكننَّ لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدّلنهم من بعد خوفهم أَمناً . يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كَفَرَ بعد ذلك فأُولئك هُمُ الفاسقون (٥٥) وأقيموا الصلاةَ وآتوا الزَّكاةَ وأطيعوا الرَّسولَ لعلكم تُرحمون (٥٦) لا تحسبَنَّ الذى كفَرُوا معجزين فى الأرض ، وَمَأْوَاهُم النَّارُ وَلَبِئْسَ المَصِيرُ (٥٧)﴾

فقضية ستخلاف الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات قد وعدهم الله بها ومتى علم أنهم صَاروا أهلاً لذلك استخلفهم ومكَّنَ لهم دينهم الّذى ارتضى لهم ، ولا يعجزه حينئذٍ سبق الذين كفروا بوسائلهم .

أمّا إذا علم الله أنّهم لم يؤهلوا بعد لهذا الاستخلاف ، فإنَّ حكمته تقتضى بأن لا يستخلفهم ، لئلّا يكون استخلافهم سبباً فى

فتنة الناس عن دين الله ، لأنهم حينئذٍ سيثمرون الدين لدنياهم الخاصة ، فينقلب الأمر على الدين بعد أن كان الغرض من استخلافهم تأييد الدين ونصره .

ومن العبث أن يطلب المسلمون الاستخلاف فى الأرض قبل أن يكونوا مؤهلين لتأييد دين الله ، وتمكينه فى الأرض . وإقامة شريعة الله فى الحكم ، ومن كان طامعاً فى أن يعلو فى الأرض ، فليتخذ غير سلّم الإسلام وسيلة إلى ذلك .

وعليهم والحالة كذلك أن ينشطوا فى الدعوة السلميّة إلى الله ، حتى يصيروا فى أعدادهم وإمكاناتهم مؤهلين للاستخلاف المنشود .

إن إعداد القاعدة الاسلامية العريضة فى بناءٍ فرديٍّ وجماعى ، هو المرحلة الأولى لإعداد الأمة الإسلامية المؤهلة للاستخلاف فى الأرض .

والقفز إلى المراحل التالية قبل إنضاج واستكمال المرحلة الأولى مخالفة لسنة الله وحكمته ، وإفسادٌ لما تمَّ بناؤه فى المرحلة الأولى ، فإنْ حصل شيء من ذلك وجب استئناف العمل من جديد على وفق منهج الله ، ومع التقيد التامّ بسننه التكوينية والتشريعية وبسائر أحكام دينه على بصيرة ، دون غلوٍّ ولا تفريط .

وحين يتم استكمال بناء القاعدة الاسلامية المؤهَّلَة للاستخلاف فى الأرض ، وتتم أعمال المرحلة الأولى ، يأتى دور تطبيق قول الله تعالى فى سورة (الحج ٢٢) وهى سورةٌ نزلت فى أواسط المرحلة المدنية :

﴿أُذِنَ لِلَّذين يُقاتَلُون بأَنَّهمْ ظُلِمُوا . وَإِنَّ الله على نصْرِهِم لقديرٌ

(٣٩) الذين أُخْرجُوا مِنْ ديارِهِمْ بغير حَقٍّ إلَّا أنْ يَقُولُوا : ربُّنَا الله ولولَا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ ببعْضٍ لَهُدِّمَتْ صوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فيها اسمُ اللهِ كثيراً . ولينصُرَنَّ الله مَنْ ينْصُرُهُ . إنَّ الله لقويٌ عزيزٌ (٤٠) الَّذينَ إنْ مَكَّنَّاهُ فى الأرضِ أقاموا الصَّلاةَ ، وآتَوُا الزَّكاة ، وأمرُوا بالمعروف ونهوا عَن المنكر ولله عاقبةُ الأُمورِ (٤١)﴾

فالإذن بالقتال فى هذه المرحلة من مراحل الدعوة قد كان له مبرّران صريحان ، ووراءهما الماح ضمنىٌّ إلى المبرّر الثالث :

فالمبرّر الأول الصريح : هو الحل على رفع الظلم القائم ، واسترداد الحقّ المسلوب ، وهو ما دَلّ عليه قول الله تعالى فى النص :

﴿أُذِنَ للَّذين يُقاتلون بأنَّهم ظُلِموا . وإنَّ الله على نصرهمْ لقديرٌ . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقٍّ إلَّا أن يقولوا : ربُّنا الله﴾

فالإذن للمؤمنين أصحاب محمد ﷺ بالقتال الذى عُلِم حكمُهُ قبل نزول هذا النصّ ، بدليل الغزوات المتعدّدة التى وقعت قبل نزوه ، إنّما كان بسبب أنّهم ظلموا من أجل إيمانهم بربّهم ، ثمّ أخرجوا من ديارهم فى مكة بغير حق . إذْ لم يكن بينهم وبين قريش فى تلك المرحلة صراع على السلطة ، أو منافسة على الحكم . إنَّهم لم يكن منهم إلَّا أن يقولوا : ربُّنا اللهُ . والدّعوةَ إلى توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية لله وحده .

المبرّر الثانى الصريح : حماية بيوت الله التى يجب أن تكون لعبادة الله وحده ، فلا تهدّم ، فيمنع منها ذكر الله .

ومن التهديم المعنوىّ لبيوت الله حجب المؤمنين عنها ، أو استخدامها فى غير عبادة الله ، أو إدخال الشرك والأوثان إليها .

وهو ما دلّ عليه قول الله تعالى فى النصّ .

﴿ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعضٍ لهدمت صوامع وبيعٌ وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله﴾

وفى هذا إشارة إلى أن هذا المبرّر موجود فى الشرائع الربَّانية التى لها معابد تسمّى عند أصحابها بهذه الأسماء (صوامع – بيع – صلوات ـ مساجد) .

المبرّر الثالث الضمنى الذى جاء للإلماح إليه ضمناً دون تصريح به ، هو التمكين فى الأرض لإقامة دين الله .

والنصرُ الخاص من الله لحملة لواء دينه وهوُ النصر الذى يوصلهم فعلاً إلى التمكين فى الأرض ، إنَّما يهبه الله بمعونته الخاصة ، للّذين يعلم من صدقهم ، وإخلاصهم ، وقدرات جنودهم وأنصارهم ، أنّهم إذا كان لهم السلطان فى الأرض ، حقّقوا الأمور التالية :

١ ـ أقاموا الصلاة (أى : على ما ينبغى) .

٢ ـ وآتوا الزكاة (أى : كما أمَرَ الله) .

٣ ـ وأَمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر (ويدخل فى هذا إقامة الدين كلّه فى المجتمع) .

أما إذا علم الله أنّهم لو مكّنَ لهم فى الأرض لم يقوموا أو لم

يستطيعوا القيام بهذه الواجبات الرّبانية ، فإنّ حكمة الله قد لا تقضى بمنحهم هذا النصر الذى يفضى لهم إلى التمكين فى الأرض ، والله عزيز حكيم .

المقولة الثانية

أدلة وجوه النّصر

(أ) فى العهد المكى :

أنزل الله على رسوله فى أواسط العهد المكى قوله فى سورة (الفرقان ٢٥) :

﴿وقال الرّسولُ : يَارِبّ إنَّ قومى اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً (٣٠) وكذلك جعلنا لكلّ نبىٍّ عَدُوّاً مِنَ المجرمين . وكفى بربك هادياً ونصيراً (٣١)﴾

لقد وصلت حالة الرسول ﷺ النفسية ، فى هذه المرحلة ، بعد جهاد بضع سنين فى الدعوة ، إلى أنْ يُنادى ربّه بأداة النداء الطويلة التى تشعر بحرارة الطلب ، فيشكو قائلاً : « **ياربِّ إنّ قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورًا** » أى لم يستجيبوا لدعوتى ، بل هجرونى وأعرضوا عنى إعراضًا شديدًا ، رغم أننى كنت أغشاهم به فى مواطن اجتماعاتهم وأتلوه عليهم ، وأبلغّهم ما أنزل علىّ ، وأبين لهم .

فجاء الجواب الرّبانى للرسول :

﴿وكذلك جعلنا لِكلّ نبىٍّ عدوّاً من المجرمين﴾

أى : نعلم ذلك ، ونعلم أيضاً أنّ لك من مجرمى قومك

أعداءً ، وهو الأمر الذى آثرت أن لا تصرّح به فى ندائك . ولكن أعلم أنّك لست الوحيد بين الرسل الذى لقى من قومه اعراضاً عن دعوته وبلاغاته ، وظهر له من مجرمى قومه أعداء يكيدونه . نعم لقد جرى لك هذا وكذلك جعلنا لكلّ نبيٍّ عدوّاً من المجرمين ، فأعدّ نفسك لهذا ، هذه هى سنة المجتمع البشرى ، التى تمّ بها القضاء التكوينى ، لإتمام حكمة الابتلاء .

ولكن الله مع أنبيائه يهديهم وينصرهم **﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾**

والبصير بحكمة الله يلتزم بهدى الله فلا يحيد عنه ، ثم ينتظر نصر الله ، على الوجه الذى يشاؤه الله ، ومشيئته سبحانه وتعالى لا تفارق حكمته .

ثانياً : ثم أنزل الله على رسوله فى سورة (يوسف ١٢) :

﴿حتى إذا استيأس الرُّسُلُ ، وظنُّوا أنّهم قد كُذِبُوا ، جاءهم نصرنا فنُجّي من نشاء . ولا يُرَدُّ بأسُنا عَنِ القومِ المجرمينَ (١١٠)﴾

هذه الآية تُشعر بأنّ حالة الرسول النفسيّة ، فى تلك المرحلة ، قد اقتربت من أن تدِبّ إليها مشاعر اليأس من هداية من لم يهتد بعدُ من قومه ، بدليل إشارة **﴿حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا﴾** أى غلب على ظنهم أن متابعة الدعوة قد أمست لا تجدى . عندئذٍ يستجيب الله لاستنصارهم به فيأتيهم نصر الله . ونصر الله عندئذٍ يكون بإنزال عقابه بالمكذبين .

وينجى الله حينئذٍ من يشاء من غير المجرمين ، أمّا المجرمون فينزّل الله عليهم بأسه ، ولا رادّ لبأس الله إذا نزل .

ثالثاً : ثم أنزل الله على رسوله قوله فى سورة (الأنعام ٦) :

﴿قد نعلم إِنَّه ليحزنك الَّذى يقولون . فإنهم لا يُكَذّبونك . ولكنَّ الظالمين بآيات الله يجحدون (٣٣) ولقد كذّبت رُسلٌ من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا . ولا مبدّل لكلمات الله . ولقد جاءك من نبأ المرسلين (٣٤) وإنْ كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلَّماً فى السَّماء فتأتيهم بآيةٍ ولو شاءَ الله لجمعهم على الهدى فلا تكوننَّ من الجاهلين (٣٥)﴾

ففى هذا النصّ تربية للرسول ـ ﷺ ـ فيها شدّة ، لتهدّم بشدَّتها ما تجسَّم فى نفسه من أثر تكذيب قومه له ، حتى أحزنته مقالات القوم فيه .

١ ـ فأبان الله له بأنه عليم بما يتوالى عليه من الحزن الذى تسببه له مقالات القوم التى يكرّرونها ، ويتهمونه فيها بالكذب والافتراء على الله .

٢ ـ ثم كشف الله له أنّ القوم فى حقيقة ما فى قلوبهم لا يُكذّبونه ، بل يعلمون حقَّ العلم أنَّه صادق ، ويعلمون أنّ الآيات التى يأتيهم بها هى آيات من عند الله حقّاً ، ولكنّهم لا يريدون أن يؤمنوا بها ، لأنّ ما تهدى إليه يخالف أهواءهم ، لذلك فهم يجحدون بآيات الله جحود المنكر ، الذى يعلم فى قرارة نفسه وقلبه أنّه متعنت ، مبطل ، مستكبر ، أو متبع للهوى ، فالجحود هو انكار الحقّ مع العلم بأنّه حقّ .

٣ ـ ثمّ ذكّره الله بما جاءه سابقاً من نبأ المرسلين الذين كذّبوا من قبله وأوذوا فصبروا على ما كذّبوا وعلى ما أوذوا ، وظلوا صابرين

حتى أتاهم نصر الله ، وذلك حين اقتضت حكمته فى معالجة القوم بانزال نصره لرسله .

وتصاريف حكمته عزّ وجلّ يقضيها بكلماته ، ولا مبدّلَ لكلمات الله ، وعلى رسله كما على غيرهم أن يستسلموا لما تقضى به حكمته .

٤ ــ ولعلّ نفس الرسول ﷺ تطلّعت إلى الاستجابة لمطالب قومه ، إذ طلبوا الآيات الخوارق ، حسب تشهياتهم ، رجاء أن يؤمنوا ويتبعوه ، وهم فى حقيقة حالهم جاحدون وليسوا بحاجة إلى الاقتناع الفكرى حتى يؤمنوا ، فلو جاءتهم الآيات التى طلبوها لم يؤمنوا ، ولقالوا : إن هى إلّا سحر .

ولمعالجة هذا التَّطلع النفسى لدى الرسول ، قال الله له بأسلوب فيه شدّة تربوية :

﴿وإن كانَ كبر عليك إعراضهم ، فإنِ استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض أو سلَّماً فى السماء ، فتأتيهم بآية﴾ .

أى : فافعل ، ولكنّك لن تستطيع ، فإذا لم يأت الله بالآيات الخوارق ، أو يمكّنك من الإتيان بها ، فإنَّك لن تستطيع الإتيان بشىء منها ، وكذلك حال سائر الأنبياء والمرسلين وحال الملائكة .

٥ ــ ثمَّ أكّد الله لرسوله وظيفته التى هى التبليغ والإنذار ، وبيّن له أنّ إيمان القوم ينبغى أن يتمّ عن طريق إراداتهم واختيارهم الحرّ ، بذلك تقضى حكمة الابتلاء ، ولو كان الغرض أن يؤمنوا إيماناً إكراهيّاً أو إيماناً جبرياً ، لسلبهم الله إرادتهم الحرّة ، ولجمعهم عندئذ على الهدى .

وإلماحاً إلى ذلك قال الله له :

﴿ولو شاء الله لجمعهم على الهدى . فلا تكوننَّ من الجاهلين﴾ .

رابعاً : ثُمَّ أنزل الله على رسوله قوله فى سورة (الصافات ٣٧) :

﴿ولقد مننا على موسى وهارون (١١٤) ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم (١١٥) ونصرناهم فكانوا هم الغالبين (١١٦)﴾

وقوله فيها :

﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : (١٧١) إنَّهم لهم المنصورون (١٧٢) وإنَّ جندنا لهم الغالبون (١٧٣) فتولَّ عنهم حتَّى حينٍ (١٧٤) وأبصرهم فسوف يبصرون (١٧٥) افبعذابنا يستعجلون ؟! (١٧٦) فإذا نزل بساحتهم فساءَ صباح المنذرين (١٧٧) وتولَّ عنهم حتى حينٍ (١٧٨) وأبصر فسوف يبصرون (١٧٩)﴾

فجاء فى النص الأول من سورة (الصافات ٣٧) هذه بيان لوجه النصر ، وهو النصر بالآية الخارقة ، وغلبة حقّ موسى والذين آمنوا معه على باطل فرعون وملئه .

وجاء فى النصّ الثانى من سورة (الصافات ٣٧) بيان .

وعد الله بنصر رسله والذين آمنوا ، وأنّ هذا الوعد قد سبقت به كلمة الله لعباده المرسلين ، وبيان لحقيقة أنّ جند الله هم الغالبون .

وأمر الله رسوله فى هذه المرحلة بأن يعرض عن المكذبين متولّياً عنهم إلى أجل آخر فقال له :

﴿فتولَّ عنهم حتَّى حين﴾ .

أى : أعرض عنهم ، ولا يهمنّك أمرهم ، ولا يحزننك كفرهم ، وتكذيبهم لك ، وما تلقى منهم أنت ومن آمن معك من أذى ، حتى حين من الدهر.

ومتى علم الله أنّ الحكمة التأديبية قد استدعت نصرك عليهم ، جاءك نصر الله .

ولكن إذا أعرضت عن معالجتهم أو مقارعتهم فلا تكن غافلاً عنهم ، ولا تدعهم يكيدون وأنت لا تعلم بما تفعلون ، بل راقبهم :

﴿وأبصرهم فسوف يبصرون﴾

أى : فسوف يبصرون عاقبتهم الوخيمة ، حين يكون لك ولمن آمن معك النصر ، وتكون لهم الخيبة والخزى والهزيمة .

وأمّا استعجالهم العذاب تحدّياً لك ، وإمعاناً فى التكذيب برسالتك فإن الحكمة الآن لم تستدع بعدُ تلبية طلبهم له ، إنّ الوقت لم يحن ، وذلك لأنه مازال فيهم أناس لم تنته مُدَّة معالجتهم ، والرجاء بهدايتهم لم ينقطع ، وإنزال العذاب الشامل يفوّت على هؤلاء فرصة الإيمان الذى لديهم الاستعداد لقبوله .

فالحكمة تقضى فى مواجهة استعجالهم هذا بالتريث والإعراض عنهم حتى حين ، مع مراقبتهم ببصر لا يفارق تحرّكاتهم .

هذه المعانى والتوجيهات نفهمها من قوله تعالى لرسوله :

﴿أفبعذابنا يستعجلون ؟! . فإذا نزل بساحتهم فساء صباحُ المنذرين . وتولَّ عنهم حتى حين . وأبصر فسوف يبصرون﴾

أى : فسوف يبصرون عاقبة تكذيبهم وتحديهم بانزال العقاب .

خامساً : ثم أنزل الله على رسوله قوله فى سورة (غافر ٤٠) :

﴿إنَّا لننصر رسلنا والَّذين آمنوا فى الحياة الدُّنيا ويوم يقوم الأشهاد (٥١) يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ، ولهم اللَّعنة ولهم سُوء الدار (٥٢) ولقد آتينا موسى الهدى ، وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب (٥٣) هدىً وذكرى لأولى الألباب (٥٤) فاصبر إنَّ وعد الله حقٌّ ، واستغفر لذنبك ، وسبح بحمد ربِّك بالعشىِّ والإبكار (٥٥)﴾

فاشتمل هذا النصّ على وعد صريح من الله ، بالنّصر لرسُله وللّذين آمنوا ، فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ، إذ يشهد الرُسل على أقوامهم أنهم بلَّغوهم رسالة ربّهم . ويشهد المؤمنون المبلّغون لما جاء به الرسل على الذين بلّغوهم من الناس .

ولكن لم يحدّد نوع النّصر الذى وعد الله به فى هذا النصّ ، فهو ينطبق على أىّ وجه من وجوه النّصر التى سبق بيانها .

وفى التذكير بموسى وببنى إسرائيل الذين أورثهم الله الكتاب وهو التوراة ، إشارة إلى وجهين من وجوه النصر .

الوجه الأول : نظير ما حصل لموسى وقومه ، إذ أنجاهم الله ، وأغرق عدوّهم وجنوده بآيةٍ خارقة .

الوجه الثانى : النّصر بالغلبة فى معارك قتالية ، كما حصل لبنى إسرائيل إذ نصرهم الله بقيادة ملكهم طالوت ، على جالوت الجبار وجنوده .

ثم أمر الله رسوله بالصبر ، وأعلمه أنّ وعد الله حقّ ، وفى هذا إشارة إلى أنّ مجىء النصر مرهون بمقتضيات حكمة الله ، فلا جدوى من استعجاله قبل الأوان ، فقال الله له :

﴿فاصبر إنّ وعد الله حق﴾ .

وأخيراً أمر الله رسوله بأن يستغفر لذنبه ، وبأن يُسبّح بحمد ربّه بالعشيّ والإبكار ، فقال الله له :

﴿واستغفر لذنبك وسبّح بحمدِ ربِك بالعشىّ والإبكار﴾

ليكون هذا الذكر عوناً على الصبر.

سادساً : ثمّ أنزل الله على رسوله قوله فى سورة (الأنبياء ٢١) :

﴿ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم (٧٦) ونصرناه من القوم الذين كذّبوا بآياتنا . إنّهمْ كانوا قوم سوءٍ فأغرقناهم أجمعين (٧٧)﴾

فضرب الله بهذا النصّ مثلاً من أمثلة نصره لرسله ، وهو النصر بإهلاك المكذبين بآيات الله ، ونجاة الرسول ومن آمن معه .

سابعاً : ثُمَّ أنزل الله على رسوله بشأن نوح أيضاً قوله فى سورة (المؤمنون ٢٣) :

﴿قال : ربّ انصرنى بما كذَّبون (٢٦) فأوحينا إليه أن اصنع الفلك بأعيننا ووحينا . فإذا جاءَ أمرنا وفَارَ التَّنُورُ فاسلك فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلَّا من سبق عليه القول منهم . ولا تخاطبنى فى الَّذين ظلموا إنَّهم مغرقُون (٢٧) فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل : الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين (٢٨) وقل : ربّ أنزلنى منزلاً مباركاً وأنتَ خيرُ المنزلين (٢٩) إنَّ فى ذلك لآياتٍ وإنْ كنَّا لمبتلين (٣٠)﴾ .

ففصل هنا ما سبق أن أنزله موجزاً فى سورة (الأنبياء) ، تثبيتاً تربوياً ، وتدرجاً تعليمياً ، وبيّن هنا أنّ نوحاً سأل ربَّه أن ينصره بعد

أن نفد صبره ، واستجاب الله له إذ علم أنه لن يؤمن من قومه إلّا من قد آمن .

وأضاف الله فى سورة (المؤمنون ٢٣) بيان عقاب الله لعدد من أقوام الرسل بعد نوح ، وأنّ ذلك قدكان نصراً للرسل ، ومنهم هود عليه السلام ، فقد دعا بمثل دعاء نوح عليه السلام :

﴿قال : ربِّ انصرنى بما كذَّبُون (٣٩) قال : عما قليل ليصبحنَّ نادمين (٤٠) فأخذتهم الصَّيحة بالحقّ فجعلناهم غثاءً فبعداً للقوم الظَّالمين (٤١)﴾

ثامناً : ثم أنزل الله على رسوله قوله فى سورة (الروم ٣٠) :

﴿ولقد أرسلنا من قبلك رُسُلاً إلى قومهم ، فجاءُوهم بالبينات . فانتقمنا من الذين أَجرموا . وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين (٤٧)﴾

وفى هذا متابعة تربويّة بتطمين قلوب المؤمنين بأنّ نصر الله لهم لا محالة قادم ، إذ هو حقٌّ على الله ، فقد سبق به وعده ، وسبقت به كلمته ، والله لا يخلف الميعاد ، ولا مبدّل لكلماته .

تاسعاً : ثم قصّ الله قصة إهلاك قوم لوطٍ ، استجابة لدعاء لوط عليه السلام ، إذ **﴿قال : ربِّ انْصرنى على القومِ المفسدين (٣٠)﴾** مع ما ذكر من قصص إهلاك مكذبى الرسل ، وذلك فيما أنزل فى سورة (العنكبوت ٢٩) .

وفى هذا تهديد لمكذبى الرسول ﷺ وتطمينٌ لقلبه وقلوب الذين آمنوا معه ، بأنّ عاقبة النصر لهم بنصر من عند الله .

ووجه النصر المذكور فى هذه القصص هو النصر بآية ربّانية

خارقة . وكانت سورة (العنكبوت) آخر سورة مكيّة تحدّثت حول هذا الموضوع ولم ينزل بعدها فى العهد المكىّ إلّا سورة (المطففين) وليس فيها حديث عن نصر الرسل أو الذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، أو عن إهلاك المجرمين أو المكذبين فيها بسبب ذنوبهم .

(ب) فى العهد المدنى :

أولاً : فنى أوّل سورة مدنية وهى سورة (البقرة ٢) جاء الإلماح للنصر بتمكين المؤمنين من الانتصار على الكافرين ، فى معارك قتالية ، بعرض قصة طالوت ملكاً على بنى إسرائيل ، وانتصاره على جالوت .

وذلك بعد الأمر بالقتال فى سبيل الله ، إذْ قامت للمسلمين فى المدينة دولة ذات كيان مستقل ، وباستطاعتها أن تُعِدَّ ما يلزم لمحاربة عدوّها .

وهو ما سبق بيانه .

ثانياً : ثم أنزل الله على رسوله قوله تعالى فى سورة (الأنفال ٨) :

﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم . واعلموا أنّ الله يحول بين المرءِ وقلبه ، وأنَّه إليه تحشرون (٢٤) واتقوا فتنةً لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصَّةً ، واعلموا أنَّ الله شديد العقاب (٢٥) واذكروا إذْ أَنتم قليلٌ مستضعفن فى الأرضِ تخافون أن يتخطفكم النَّاسُ فآواكم وأيَّدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون (٢٦)﴾

فجاء فى هذا النص : أمرٌ للمؤمنين بالاستجابة للرسول فى شأن

إعداد العدّة الكافية ، لمواجهة احتمالات المعارك الحربية القادمة ، وفى كلّ أمرٍ فيه حياتهم المادّية والمعنوية .

(ب) وتذكير لهم بما كانوا عليه قبل أن يهاجروا إلى المدينة ويكون لهم فيها دولة ذات سيادة ، إذ كانوا قليلين مستضعفين فى الأرض ، يخافون أن يتخطفهم الناس ، ومنةٌ عليهم بأمور ثلاثة :

١ ـ أنه عزّ وجلّ آواهم فى المدينة ، وجعل لهم فيها إخواناً يؤونهم وينصرونهم .

٢ ـ إنه عزّ وجلّ أيّدهم بنصره فى غزوة بدرٍ المظفرة ، التى كان النصر فيها ، بظهور جيش المؤمنين القليل ، على جيش الكافرين الكثير .

٣ ـ انه عزّ وجلّ رزقهم من الطيبات فى دار هجرتهم ، بعد أن كانوا فى الضيق والضنك .

وأنزل الله فى سورة (الأنفال ٨) أيضاً قوله تعالى لرسوله :

﴿وإن يريدوا أن يخدعوك فإنَّ حسبك الله ، هُو الَّذى أيدك بنصره وبالمؤمنين (٦٢)﴾

فأشار بهذا إلى النصر الذى ظفر الرسول به بتأييد من عند الله ، وبقتال المؤمنين الصادقين فى بدر .

ثالثاً : ثمّ أنزل الله على رسوله قوله تعالى فى سورة (آل عمران ٣) :

﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتمْ أذِلَّة فاتَّقُوا الله لعلَّكم تشكرون (١٢٣)﴾

وكان النصر العسكرى فى هذه المعركة محفوفاً بتأييد من عند الله

للمؤمنين ، فدخلت فيه إمدادات من الملائكة ، قدّمت فيه نوع دعم ، تمّ به ترجيح كفة جيش الإيمان على جيش الكفر .

وأنزل الله فيها أيضاً قوله تعالى :

﴿إنْ ينصركم الله فلا غالِبَ لكم . وإنْ يخذلكم فمن ذا الَّذى ينصركم من بعده . وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١٦٠)﴾

فتضمّنت هذه الآية التحذير الضمنى من مخالفة الشروط التى بها يمنح الله النصر للمؤمنين ، والتحذير من الغرور بالنفس ، ومن الاعتماد الكلّى على الوسائل ، وترك التوكّل على الله والثقة بنصره .

رابعاً : ثم أنزل الله على رسوله قوله تعالى فى سورة (النساء ٤) :

﴿والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليّاً وكفى بالله نصيراً (٤٥)﴾

ففى هذه الآية تطمين لقلوب المؤمنين ، تجاه أعداء لم يظهروا بعد على ساحة المواجهة ، بأنّ الله سينصرهم عليهم بوسائله التى لا تحصى .

خامساً : ثم أنزل الله على رسوله قوله تعالى فى سورة (محمد ٤٧) :

﴿يا أيُّها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٧)﴾

فأبان الله فى هذه الآية شرط الإخلاص الكامل لله فى معارك القتال حتى يحقّق الله نصره للمؤمنين الزائد على موازين القوى المعتادة ، وضمن المنهج الإسلامى المبين .

وجاءت هذه الآية عقب تفصيلات تتعلّق بتعليمات قتالية ، وهى :

﴿فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرّقاب ، حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعْدُ وإما فداءً حتّى تضع الحربُ أوزارها . ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعضٍ . والذين قتلوا فى سبيل الله فلنْ يضلّ أعمالهم (٤) سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهمُ الجنّة عرّفها لهم (٦)﴾

وفى هذا النصّ بيان للذين آمنوا أنّ دعوتهم لقتال أعدائهم ليست حاجة إليهم ، ولكن ليبلوهم الله ، ولو شاء الله لانتصر من أعدائهم بنفسه .

سادساً : ثمّ أنزل الله على رسوله قوله فى سورة (الحج ٢٢) :

﴿ولينصرنّ الله من ينصره إنّ الله لقوىٌّ عزيزٌ (٤٠)﴾

والمراد بالنّصر فى معارك القتال ، الموصلُ بمعونة الله وتأييده إلى التمكين فى الأرض ، بدليل سوابق النصّ ولواحقه فى السورة .

سابعاً : ثمّ أنزل الله على رسوله قوله فى سورة (الصف ٦١) :

﴿يا أيّها الّذين آمنوا . هل أدلّكم على تجارةٍ تنجيكم من عذابٍ أليم ؟ (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون (١١) يغفر لكم ذُنُوبكم ويدخلكم جنّاتٍ تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيّبةً فى جنّاتِ عدنٍ . ذلك الفوز العظيم (١٢) وأخرى تحبُّونها نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ وبشر المؤمنين (١٣) يا أيُّهَا الَّذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريّين : منْ أنْصارى إلى الله ؟ . قال الحواريُّون : نحن أنصارُ الله . فآمنتْ طائفةٌ من بنى إسرائيل وكفرت طائفةٌ ، فأيّدْنا الّذين آمنوا على عدوّهمْ فأصبحوا ظاهرين (١٤)﴾ .

النصّ هنا يشتمل على دعوة المؤمنين إلى الجهاد فى سبيل الله بالأموال والأنفس . والجهاد فى سبيل الله يشمل كلّ أنواعه ، بدءاً من الدعوة والتبليغ ، حتى المعارك القتالية التى قد تلجىء إليها ظروف الاحتكاك بأعداء دين الله وأعداء المسلمين .

وسورة (الصف) من أواخر ما نزل فى المدينة .

وقيد (فى سبيل الله) يحدّد أنه جهاد صادق خالص من شوائب أغراض الدنيا .

أمّا الثواب الموعود به على هذا الجهاد الصادق الخالص بالأموال والأنفس ، فهو ثواب مؤجّلٌ ليوم الدين ، وهو الثواب الأعظم الذى ينبغى أن يكون هدف المجاهدين . وثواب آخر معجل يحبُّه الناس عادةً ، لأنّهم يحبّون العاجلة .

فالثواب المؤجل ليوم الدين يشتمل على ما يلى :

(أ) يغفر لكم ذنوبكم .

(ب) ويدخلكم جنّاتٍ تجرى من تحتها الانهار ومساكن طيبة فى جنّاتِ عدنٍ . ذلك الفوز العظيم .

والثواب المعجّل الذى يحبُّه الناس عادةً ، لأنَّهم يُحبِّون العاجلة ، يشتمل على ما يلى :

(أ) نصرٌ من الله على أىّ وجه من وجوه النصر ، بالقتال أو بغيره .

(ب) وفتح قريب ، يفتح الله به للمجاهدين البلاد والممالك .

ثمّ ضرب الله مثلاً من أمثلة نصره وتأييده وفتحه ، للمجاهدين من أتباع الرسل السابقين ، وهو نصرهُ للّذين آمنوا بعيسى عليه

السلام إيماناً صادقاً على عدوّهم ، حتى أصبحوا ظاهرين لهم تمكين فى الأرض وسلطان .

والمعروف أنّ معظم جهاد هؤلاء الذين آمنوا بعيسى عليه السلام صادقين مخلصين كان جهاد دعوة لا جهاد قتال ، وبلغوا بذلك بعد حين أن كان لهم السلطان والتمكين والظهور على عدوّهم .

ثامناً : ثم أنزل الله على رسوله قوله فى سورة (الفتح ٤٨) :

﴿إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً (١) ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً (٢) وينصرك الله نصراً عزيزاً (٣)﴾ .

نزلت سورة (الفتح ٤٨) هذه عقب صلح الحديبية مباشرة ، وذلك فى الطريق والمسلمون منصرفون من الحديبية وعائدون إلى المدينة .

فأبان الله أنّ ما تمّ فى صلح الحديبية قد كان فتحاً مبيناً ، لا فتحاً مخفياً ، وإنّما يستبينه أهل البصيرة بالأحداث ، وقد ذكر الله أنّه فتح مبين ، لأنّه مقدمة واضحة لنصرٍ عزيز ، أى : نصر غالب سيأتى بتأييد الله ومعونته .

وأرى فى هذه الآيات إلماحاً إلى اقتراب إنتهاء وظيفة الرسول ﷺ فى هذه الحياة ، فالفتح المبين قد حصلت مقدماته ، وأصبح ظهوره لكل الناس فى الواقع المنجّزِ وشيكاً ، وغدا النصر العزيز الغالبُ قريباً .

وإذْ قد اقترب أجل انتهاء وظيفة الرسول فى هذه الحياة الدنيا ، فالحكمة تقضى بتسديد الحساب ، ما مضى منه وما تبقى ، ما لله على

رسوله ، وما للرسول عند ربه من أمور معجّلة فى الحياة الدنيا .

١ ـ أمّا صحيفة ما لله على الرسول ، فسيتم تسديدها بالغفران عمّا مضى وعمّا سيأتى ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ فلا مواخذة بعد هذا الغفران .

٢ ـ وأمّا صحيفة ما للرسول عند ربّه من أمور معجَّلة فى الحياة الدنيا ، مما سبق به وعد الله له ، فسيحقّقه الله له قريباً وهو ما يلى :

(أ) النصر العزيز الغالب على ألدّ خصومه ، وقد تمّ ذلك قريباً بفتح مكة ، ثم بفتح خيبر ، ثم بإخضاع كلّ الجزيرة للإسلام ، وبدء التطلع إلى امتلاك نواصى صروح الدّول الكبرى يومئذ .

(ب) إكمال الدين ، الذى هو الصراط المسقيم ، وقد تحقق ذلك قريباً ، يوم أنزل الله فى حجّة الوداع قوله تعالى : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً**﴾

(جـ) إتمام النّعمة فى ظروف هذه الحياة الدنيا ، وهى نعمة المعارف الزائدة على شرائع الدين فى الحلال والحرام ، ممّا تنزّل به الوحى ، وقد تحقق ذلك أيضاً يوم أنزل الله الآية السابقة ، على أن شرائع الدين هى من النعمة أيضاً .

وبدءاً بالأعمّ فالأهمّ قال الله لرسوله :

﴿**ويتمّ نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً ، وينصرك الله نصراً عزيزاً**﴾

تاسعاً : ثمّ أنزل الله على رسوله قوله فى سورة (التوبة ٩) وهى آخر ما نزل من القرآن من سور قبل سورة النصر ، وجوُّ السورة كلُّه

جوّ قتال وحرب :

﴿قاتلوهم يعذّبْهُمُ الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، وَيَشْفِ صُدُورَ قومٍ مؤمنين (١٤) ويذهب غيظ قلوبهم ، ويتوب الله على من يشاء والله عليمٌ حكيمٌ (١٥)﴾

وأنزل فيها أيضاً قوله :

﴿يا أيُّها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكمُ انفروا فى سبيل الله إثّاقلْتُمْ إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدُّنيا من الآخرة؟! . فما متاع الحياة الدُّنيا فى الآخرة إلّا قليلٌ (٣٨) إلّا تنفروا : يُعَذّبكم عذاباً أليماً . ويستبدل قوماً غيركم ، ولا تضرُّوه شيئاً . والله على كُلّ شىءٍ قديرٌ (٣٩) إلّا تنصُرُوه فقد نَصَره الله إذْ أخرَجَهُ الّذين كفروا ثانى إثنين إذ هما فى الغار . إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنَّ الله معنا ، فأنزل الله سكينتهُ عليه وأيّده بجنودٍ لم تروها ، وجَعَلَ كلمة الّذينَ كفروا السُّفلى وكلمة اللهِ هى العليا ، والله عزيزٌ حكيمٌ (٤٠)﴾ .

فالدعوة فى هذه السورة دعوة إلى القتال فى سبيل الله ، بعد أن استكمل المسلمون شروطه المادّية ، والنصر الموعود به هنا هو النّصر على الأعداء فى معارك القتال :

﴿قاتلوهم ، يعذّبهم الله بأيديكم ، ويخزهم ، وينصركم عليهم ، ويشفِ صدور قوم مؤمنين﴾ .

وفى النصّ الثانى جاء التحذير الشديد من التناقل ، والتباطؤ ، وإيثار الحياة الدنيا على الآخرة ، ويتضمن هذا التحذير الوعيد بالعذاب الأليم ، والظاهر أنّه عذاب أليم معجّل فى الحياة الدنيا .

وجاء فى بيان هذا النصّ التحذيرى للمؤمنين ، أنّ تخلّيهم عن

نصرة الرسول لا يضرّ الرسول شيئاً ، فالله قادر على نصره بآية خارقة ، وقد سبق أن نصره بآية من عنده إذ أنجاه من كفّار مكة يوم الهجرة ، وقد اجتمعوا عند باب بيته لقتله ، وانجاه مرّة أخرى إذ ستره الله عن أعين القوم وهو مختبئ فى الغار مع صاحبه أبى بكر رضى الله عنه ، وقد بلغوا إلى الغار بحثاً عنه ، حتى إن أحدهم لو نظر إلى موطىء قدمه لرأى من فى الغار ، ولكن الله صرف أبصارهم أو غشّى عليها ؛ والله عزيز حكيم .

عاشراً : ثم أنزل الله على رسوله سورة (النصر) وكانت إيذاناً بانتهاء مهمة الرسالة ، واقتراب الأجَل ، والنّصر المذكور فيها يشمل النّصر بالقتال وبغيره ، والنصر بدخول الناس فى دين الله أفواجاً .

خـــاتمة

يا شباب الاسلام ، ويا حملة لواء الدعوة إليه ، لا تتورّطوا فى تجارب تستدرجكم إلى ما لا يخدم الإسلام حقاً ، أو إلى غير ما تحبون وترجون من نتائج . لا تتورّطوا فى تجارب متسرّعة فجّة ، أو تجارب طائشة رعناء ، أو تجارب مشوّهة .

فإنكم إذا فعلتم شيئاً من ذلك خدمتم قوىً كثيرة معادية ، تريد أن تستهلك الاسلام وتُجهز على الدعوة إليه والتطّلع لمجده ، عن طريق تجربات فاشلات ، لتسقطه فى نفوس الجماهير الكثيرة المنتمية إليه ، كما تساقطت شعارات زيوف حملتها أقوامنا من قبل أما تساقطتْ ذابلة تافهة ، تساقط زهرات الشوك ؟! .

أما رأيتم كيف تساقطت القومية ، والعلمانية ، والاشتراكية ، ونحوها من المبادىء التى لا خير فيها ، والتى ملأت لوحاتها وإعلاناتها ودعاياتها المضلّلة أسماع الناس وأبصارهم ، ثم كشف الناس بعد تجربتها أنها غثاء كغثاء السيل ، وزبد كزبده ؟!

أمّا الزبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض .

يا شباب الإسلام استمسكوا بالإسلام عقيدة ، ومنهجاً ، وخطّة عمل ، وأسلوب تنفيذ ، واستهدوا بهدى حركيّةِ بناء

الإسلام المتدرجة ، واعرفوا أعداءكم حقاً ، ومقادير قواهم المختلفة ، وأعدوا لكلّ أمرٍ عدّته ، وانظروا نظراً بعيداً ، ولا تنظروا فى حدود مواطىء أقدامكم فقط ، فأنتم فى عالم يموج بالأعداء الكثيرين ، ويموج بالشياطين ، ويملكون من القوى المادّية ما لا تملكون ، فاعتصموا بمزيتكم التى بها يجعل الله لكم من كل همّ فرجا ، ومن كلّ ضيق مخرجاً . ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين .

الفهـــــرس

صدر من هذه السلسلة

الكتاب	المؤلف
١ ـ تأملات فى سورة الفاتحة	[الدكتور حسن باجودة]
٢ ـ الجهاد فى الإسلام مراتبه ومطالبه	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٣ ـ الرسول ﷺ فى كتابات المستشرقين	[الأستاذ نذير حمدان]
٤ ـ الإسلام الفاتح	[الدكتور حسين مؤنس]
٥ ـ وسائل مقاومة الغزو الفكرى	[الدكتور حسان محمد حسان]
٦ ـ السيرة النبوية فى القرآن الكريم	[الدكتور عبد الصبور مرزوق]
٧ ـ التخطيط للدعوة الإسلامية	[الدكتور على محمد جريشة]
٨ ـ صناعة الكتابة وتطورها فى العصور الإسلامية	[الدكتور أحمد السيد دراج]
٩ ـ النوعية الشاملة فى الحج	[الأستاذ عبد الله بوقس]
١٠ ـ الفقه الإسلامى آفاقه وتطوره	[الدكتور عباس حسن محمد]
١١ ـ لمحات نفسية فى القرآن الكريم	[د. عبدالحميد محمد الهاشمى]
١٢ ـ السنة فى مواجهة الأباطيل	[الأستاذ محمد طاهر حكيم]
١٣ ـ مولود على الفطرة	[الأستاذ حسين أحمد حسون]
١٤ ـ دور المسجد فى الإسلام	[الأستاذ على محمد مختار]
١٥ ـ تاريخ القرآن الكريم	[الدكتور محمد سالم محيسن]
١٦ ـ البيئة الإدارية فى الجاهلية وصدر الإسلام	[الأستاذ محمد محمود فرغلى]
١٧ ـ حقوق المرأة فى الإسلام	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
١٨ ـ القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته[١]	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
١٩ ـ القراءات أحكامها ومصادرها	[الدكتور شعبان محمد اسماعيل]
٢٠ ـ المعاملات فى الشريعة الإسلامية	[الدكتور عبد الستار السعيد]
٢١ ـ الزكاة فلسفتها وأحكامها	[الدكتور على محمد العمارى]
٢٢ ـ حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم	[الدكتور أبو اليزيد العجمى]

الكتاب	المؤلف
٢٣ ـ الأقليات المسلمة فى آسيا وأستراليا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٢٤ ـ الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر	[الدكتور عدنان محمد وزان]
٢٥ ـ الإسلام والحركات الهدامة	[معالى عبد الحميد حموده]
٢٦ ـ تربية النشء فى ظل الإسلام	[الدكتور محمد محمود عمارة]
٢٧ ـ مفهوم ومنهج الاقتصاد الإسلامى	[الدكتور محمد شوق الفنجرى]
٢٨ ـ وحى الله	[الدكتور حسن ضياء الدين عتر]
٢٩ ـ حقوق الإنسان وواجباته فى القرآن	[حسن أحمد عبدالرحمن عابدين]
٣٠ ـ المنهج الإسلامى فى تعليم العلوم الطبيعية	[الأستاذ محمد عمر القصار]
٣١ ـ القرآن كتاب أحكمت آياته [٢]	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٣٢ ـ الدعوة فى الإسلام عقيدة ومنهج	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٣٣ ـ الاعلام فى المجتمع الإسلامى	[الأستاذ حامد عبد الواحد]
٣٤ ـ الإلتزام الدينى منهج وسط	[عبدالرحمن حسن حبنكة الميدانى]
٣٥ ـ التربية النفسية فى المنهج الإسلامى	[الدكتور حسن الشرقاوى]
٣٦ ـ الإسلام والعلاقات الدولية	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
٣٧ ـ العسكرية الإسلامية ونهضتنا الحضارية	[اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ]
٣٨ ـ معانى الأخوة فى الإسلام ومقاصدها	[الدكتور محمود محمد بابللى]
٣٩ ـ النهج الحديث فى مختصر علوم الحديث	[الدكتور على محمد نصر]
٤٠ ـ من التراث الاقتصادى للمسلمين	[الدكتور محمد رفعت العوضى]
٤١ ـ المفاهيم الاقتصادية فى الإسلام	[د. عبدالعليم عبدالرحمن خضر]
٤٢ ـ الأقليات المسلمة فى أفرقيا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٣ ـ الأقليات المسلمة فى أوروبا	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]
٤٤ ـ الأقليات المسلمة فى الأمريكتين	[الأستاذ سيد عبد المجيد بكر]

الكتاب	المؤلف
٤٥ ـ الطريق إلى النصر	[الأستاذ محمد عبد الله فوده]
٤٦ ـ الإسلام دعوة حق	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٤٧ ـ الإسلام والنظر فى آيات الله الكونة	[الدكتور محمد عبد الله الشرقاوى]
٤٨ ـ دحض مفتريات	د . البدراوى عبد الوهاب زهران]
٤٩ ـ المجاهدون فى فطانى	[الأستاذ محمد ضياء شهاب]
٥٠ معجزة خلق الإنسان	[د . عبد الرحمن عثمان]
٥١ ـ مفهوم القيادة فى إطار العقيدة الإسلامية	[الدكتور سيد عبد الحميد مرسى]
٥٢ ـ ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربى والماركسى	[أنور الجندى]
٥٣ ـ الشورى سلوك والتزام	[د . محمد أحمد البابلى]
٥٤ ـ الصبر فى ضوء الكتاب والسنة	[أسماء عمر فدعق]
٥٥ ـ مدخل إلى تحصين الأمة	[د . أحمد محمد الخراط]
٥٦ ـ القرآن كتاب أحكمت آياته	[الأستاذ أحمد محمد جمال]
٥٧ ـ كيف تكون خطيباً	[الشيخ عبد الرحمن خلف]
٥٨ ـ الزواج بغير المسلمين	[الشيخ حسن خالد]
٥٩ ـ نظرات فى قصص القرآن	[محمد قطب عبد العال]
٦٠ ـ اللسان العربى والاسلامى معاً فى مواجهة التحديات	[الدكتور السيد رزق الطويل]
٦١ ـ بين علم آدم والعلم الحديث	[الأستاذ محمد شهاب الدين الندوى]
٦٢ ـ المجتمع الإسلامى وحقوق الإنسان	[الدكتور محمد الصادق عفيفى]
٦٣ ـ من التراث الاقتصادى للمسلمين ٢	[د . رفعت اعوضى]